جيرالد هوتر

الرجل والمرأة

أيهما الجنس الأضعف؟

(الفروق الفسيولوجية والنفسية والتربوية)



ترجمة: د. علا عادل

العربي للنشر والتوزيع



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت: 27921943 - 27954529 / فاكس: 27947566

الرجل والمرأة
أيهما الجنس الأضعف ؟
جيرالد هوثر

الطبعة الأولى 2011
رقم الإيداع 24087/2010
ISBN : 978-977-319-134-1

Gerald Hüther
Männer
Das schwache Geschlecht und sein Gehirn
Vandenhoeck & Ruprecht


GOETHE-INSTITUT

"The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institute which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs".

تم نشر هذا العمل بمبادرة معهد جوته، وبتمويل من وزارة الخارجية الألمانية.

جيرالد هوتر

الرجل والمرأة

أيهما الجنس الأضعف ؟

(الفروق الفسيولوجية والتربوية والنفسية)

ترجمة : د. علا عادل
مراجعة : د. سلمى سليمان

2011



دار الكتب والوثائق القومية بطاقة فهرسة

إعداد دار الكتب المصرية

هوتر، جيرالد

الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف./ جيرالد؛ ترجمة علا عادل؛ مراجعة سلمى سليمان. - القاهرة. - العربى للنشر والتوزيع، 2010

ص؛ سم.

تدمك: 9789773191341

1 - الرجل 2- المرأة أ- العنوان

عادل ، علا (مترجم)

سليمان ، سلمى (مراجع)

301/411

رقم الايداع 2010/24085

مقدمة الطبعة العربية

تكمن أهمية الكتاب وضرورته في أنه من الكتب الرائدة التي مزجت بين القراءة العلمية البيولوجية ونظريات علم النفس والتربية الحديثة، مع الكثير من الاستخلاصات والشواهد والخبرات التي نمر بها في الحياة اليومية المعاصرة.

وهو يبدأ موضوعه من أسفل سلم النشوء والتطور للكائنات الحية، فيعود إلى المخلوقات وحيدة الخلية التي تقدم إجابة عن أصول الجنس الذكري، ليقوم برحلة طويلة داخل طبيعة وجوهر ذلك الجنس بوجه عام، وداخل ما يحدث في رأس الرجل بوجه خاص، تاركاً الجانب المتعلق بالمرأة لإحدى بنات جنسها كي تبحث وتقوم بتلك الرحلة داخل طبيعة وجوهر النساء، وما يحدث داخل رؤوسهن بوجه خاص.

فهو يوضح لنا ويكشف عن الكثير من تصرفاتنا وسلوكياتنا، وميولنا ومفاهيمنا، وطرق وأساليب تفكيرنا كذكور.

ولأن مثل تلك الدراسات والإبداعات العلمية والفكرية نفتقدها في مؤلفاتنا العربية، فقد اخترنا ذلك الكتاب لترجمته من لغته الأصلية، ليصبح بمثابة مصباح يضيء زوايا وخبايا من حياتنا البشرية، مما قد يدفعنا إلى تعديل بعض جوانبها السلبية، وعناصرها غير الإيجابية، ويضعنا على المسار الصحيح كي نصير ذلك الإنسان الأفضل الذي نسعى لأن نكونه في المستقبل، وذلك من خلال إثارة وتحفيز قدراتنا وإمكاناتنا وملكاتنا الطبيعية (الجسدية والنفسية) في شتى مناحي الحياة على كوكبنا الأرضي.

بقي أن نقول إن العالم والمفكر "جيرالد هوتر" يؤمن بشكل كبير بأهمية المعرفة، ويُعتبر – حالياً - من أشهر وأهم الباحثين في العقل

البشري داخل ألمانيا؛ حيث انصب اهتمامه الرئيسي على كيفية استغلال قدرات الإنسان الاستغلال الأمثل، خصوصاً في مجالات التعليم والقيادة السياسية والاقتصادية، والعلاقات العامة، ومن هنا يعمل مستشاراً للشركات وللذين ينخرطون في النشاط السياسي، كما أنه يلقي محاضرات ويُنظم سيمنارات في تلك الموضوعات بأماكن مختلفة من العالم، ويساهم بالكتابة وكمحرر مشارك في عدد من الدوريات العلمية، ويظهر بصورة دائمة محاوراً ومناقشاً في برامج الإذاعة والتليفزيون، ومؤلفاً لعدد من الكتب المهمة.

كما يعمل "هوتر" مديراً لمركز أبحاث علم الأعصاب البيولوجية في قسم الأمراض العصبية بمستشفى جوتنجتن الجامعي، ومعهد الصحة العامة في جامعة مانهايم هايدلبرج، ويعتبر نفسه أحد "**بُناة الجسور الحديثة**" بين العلم والحياة اليومية للإنسان في زمننا هذا.

ملاحظات أولية

الرجل ليس ماكينة

كيف يصبح رجل ما رجلاً ؟

أو لنقل، تحديداً، كيف يتحول هذا الكائن الحي إلى الشكل الذي يُعتبر رجلاً ؟

هذا هو السؤال الذي يبحثه هذا الكتاب.. فأنا عالم أحياء وباحث في العقل البشري؛ لذا يسهل الرد على هذا السؤال بسرعة من زاوية علم الأحياء، وعلم طبيعة الأعصاب.. وبما أنني في الوقت نفسه أمثل الجنس الذكوري، فإن الإجابة على هذا السؤال البسيط تصبح أكثر صعوبة إذا نظرنا للأمر من هذه الزاوية.

لذا ترددتُ طويلاً في وضع هذا الكتاب؛ فإفراد صفحات مطولة لسرد الفروق بين الرجال والنساء يُعد أمراً سهلاً في مثل تلك الكتب التي يمكن أن تكون مسلية إذا ما قُدمت بشكل جيد. وحتى إذا صيغت هذه الكتب بطريقة جافة، فسوف يجد الرجال والنساء أنفسهم بطريقة أو بأخرى - في ملاحظاتها وتقييماتها وأحكامها المسبقة عن مدى محدودية الجنس الآخر بين الأغلبية. وذلك ما يُولِّد شعوراً حسناً .

ولكن ما جدوى معرفة أن مخ الرجال أكبر من مخ النساء، وأن الدعامات التي تربط بين فصي المخ هي أقل سمكاً، بينما يكون قرين القشرة أو الطبقة الخارجية لها أخاديد وتقوسات أقل؟ كذلك لا يُعتبر مثيراً أن نعلم بأن هناك أماكن وتراكيب محددة تختلف في العقل الذكوري عنه في عقل النساء، مما يجعل الرجال أفضل من النساء في أمور ما وأسوأ في أمور أخرى. ولكي ندرك ذلك فليس علينا سوى مراقبة الرجال أثناء العمل، وفي ملعب كرة القدم، وأمام التليفزيون، وعند التسوق. كما أنه ليس

مفاجئاً أن الرجال يتمتعون بنسبة أعلى من هورمون التيستوستيرون مما هي عليه لدى النساء. ومن يرى الرجال يصبحون أكثر عدوانية وأكثر تنافسية بل وأقل وفاءً من جراء ذلك، سيجد تفسيراً بسيطاً لهذه الظاهرة واسعة الانتشار. ولأن لكل قاعدة استثناء، فإن هناك عدداً لا حصر له من الرجال الذين يتعايشون مع نسبة هرمون التيستوستيرون العالية دون أن يُظهروا العدوانية بشكل لافت؛ ولكنهم يُصابون بالصلع أسرع من البعض الآخر.

وهكذا تتضح لنا الكثير من الأمور التي قد تبدو من الوهلة الأولى بمثابة التفسير العلمي لهذا، بمجرد تدقيق النظر قليلاً لتصبح مثل إثبات لحكم مسبق منتشر وشائع وقد غلفته هالة من العلم. عندئذ نكون قد وقعنا في فخ محاولات الإيضاح المسهبة، والتي تشرح لنا أن شيئاً ما يكون على هيئته تلك لأنه يعمل تماماً بالطريقة التي يعمل بها. وعندما تُوصف الآليات بالتفصيل بقدر الإمكان، كما هو الحال بالنسبة لعمل هورمون التيستوستيرون ولوزتي الدماغ وقرين الدماغ، وحتى يعتقد الجميع في النهاية أنهم فهموا لماذا أصبح الرجال هكذا، على تلك الشاكلة.

في حالة الأجهزة التقنية، إذا اتخذنا السيارة على سبيل المثال، يمكن أن يؤدي الوصف المفصل للمحرك وناقل السرعات والتعشيقة والعجلات - إلى فهم طريقة عمل السيارة بشكل أفضل، كذلك سبب دورانها عند إدارة مفتاح الإشعال ونقل الحركة وفك التعشيقة. ولكن لأن الرجال كائنات حية، فهم يعملون بطريقة مختلفة تماماً عن الماكينات، ولذا فلن يساعدنا في فهم طبيعتهم - تفكيكهم إلى أجزاء فردية والنظر إلى داخل عقولهم ومقياس مستوى الهورمون وفك رموز مخطط تركيبتهم.. كل ذلك لن يساعدنا، مثلما هو الحال بالنسبة لكل شيء آخر حي. ومن يحاول ذلك بشيئ من الجدية، إما أنه قرأ الكثير للغاية من إرشادات الاستخدام أو أنه قد علق في نماذج تفكير عصر الآلات. هناك ظاهرة معروفة: إن من ينشغل لفترة طويلة ، بحماس كبير، بشيء يسلبه عقله، يبدأ في وقت ما بالتفكير في ما إذا كان ذلك

يناسب الغرض من حماسه وإعجابه أم لا. هكذا لا يصبح مربو الكلاب وحدهم الأشبه بحيواناتهم ذوات الأربع، بل هكذا يتشبه المهووسون بالكمبيوتر بكائناتهم الافتراضية، ومعجبو نجوم البوب بأبطالهم، كما يتشبه الأطفال والشباب بقدوتهم (الإعلامية).. وأي شيء أخر موجود من الظواهر اللافتة للنظر التي تُكيف العقل على الهواية المحببة .

في القرن الماضي، كان هناك عدد كبير من الناس متحمسين بدرجة غير عادية للآلات الرائعة التي كانت تُجَمع وتُشغل كي تجلب نفعاً ويمكن تطويرها وتحسينها باستمرار. لا يدهشنا إذن أن كان هناك المزيد من الناس الذين طوروا نموذج تفكير كان مناسباً لفهم طريقة عمل الماكينات. وبرغم أن عصر الآلات يتجه في الوقت الحالي إلى نهايته تدريجياً، إلا أنه يصعب استبدال طرق الفكر التي ترسخت في أذهان البشر أنذاك ، بسرعة. فهي تصحبنا اليوم في طريقنا إلى الطبيب، "لأن المضخة لم تعد تعمل بشكل صحيح"، أو "لأن هناك مفصل قد استهلك".. كما نصحبها معنا إلى المطعم، كي "نعيد ملء الخزان ثانية" ونحملها إلى الصيدليات ومتاجر مستحضرات التجميل، حيث تُعرض علينا كافة مواد الدهان، والمواد الحارقة وتلك التى تُعيد بناء أجسادنا. وفي المساء نجلس مرة أخرى أمام التليفزيون كي "نفصِل".

من الواضح أن تفكيرنا أقوى كثيراً مما هو معلوم لنا، كما أنه موسوم بتصورات وصور داخلية واشتقاقات لكلمات نابعة من عصر الآلات. هذا هو السبب الذي يجعلنا نعتبر أجسادنا، وأحياناً عقولنا، بل وفي بعض الأحيان نعتبر أنفسنا مثل الآلة. فهي تعمل كما تعمل، لأنها بُنيت هكذا كي لا يمكنها سوى العمل هكذا.

إلا أن الكائنات الحية (البشر) ومن ثم أيضاً (الرجال) ليسوا ماكينات، حتى وإن كان الرجال يعتبرون أنفسهم هكذا أحياناً. إذ أنهم لا يتم تجميعهم وفقاً لأية مخططات ، بل إنهم يبنون أنفسهم على مدار

حياتهم حتى يصبحوا هذا الكيان. وهذه العملية الرائعة للتركيب الذاتي لكل ما هو حي، تُسَمَّى بالخلق الذاتي أو التكوين الذاتي. وهذه القدرة بالضبط هي ما تُميز الكائن الحي عن الماكينة بشكل مبدئي. ومن يريد أن يفهم لماذا أصبح الرجال بوجه عام، والرجال الفرادى على وجه الخصوص، على تلك الشاكلة، لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال إلا إذا حاول أن يكتشف كيف ولماذا أصبحوا هكذا، كما هم . هذا المنظور الخاص بتاريخ التطور أو بـ "علم أحياء التطور"، هو ما يحاول هذا الكتاب أن يتناول من خلاله الحقيقة البسيطة: لا يمكن جعل ما هو غير مرئي، مرئياً من خلال محاولة تلمسه أو فكه، بل بتسليط الضوء عليه.. مثلما فعل المختل في الرواية الرمزية الرائعة عن الفيل:

"ذات يوم ، أمر أمير هندي بإدخال فيل في غرفة مظلمة لتفحصه مجموعة من أفضل العلماء (رجال ونساء).

بدأ أحدهم يتحسس ساقه وقال إن هذا الشئ هو شجرة ، بينما تلمس الآخر أذنه وقال إن هذا الكائن يشبه ورقة شجر كبيرة لزهرة اللوتس.

وانشغل ثالث بذيل الفيل ووصل إلى النتيجة التي مفادها أن الفيل له طبيعة تشبه ثعبان البحر ؛ وهو الأمر الذي تعارض مع رأي من فحص الظهر فبدا له الفيل مثل سمك القرش.

بينما أخذ متفحص خرطوم الفيل يسخر من غباء هؤلاء وجهلهم ، فقد تبين له أن الفيل ما هو إلا ثعبان . عندئذ استدار الفيلسوف وقد ملأه الحزن لحيرة زملائه وتخبطهم الفكري ، حتى لمست يده أنياب الفيل . وكان ملمس العاج قيماً للغاية لدرجة أن الفيلسوف اعتبر ذلك علامة على ما هو إلهي.

ولم تكن تلك هي نهاية النقاش ، لأنه ما إن ظهر الرجل المختل وهو يحمل المصباح حتى طالبوه جميعاً أن يحتفظ بحججه غير المناسبة ويطفئ نور المصباح".

رجاء مُوَجَّه إلى النساء

كتابنا هذا للرجال؛ حيث ينبغي أن يُشجع الرجال على أن يشقوا طريقهم كي يفهموا أنفسهم ويدرسونها بشكل أفضل، وكي يتمكنوا من بسط الإمكانات الكامنة بداخلهم. إلا أن المشكلة تكمن فقط في أن النساء، وفقاً للوسائل الإحصائية، يقرأن الكتاب أكثر كثيراً من الرجال. وقد سلكن طريقهن منذ وقت طويل صوب فهمهن لأنفسهن. لذا فمن المحتمل ألا يصل هذا الكتاب إلا إلى نسبة محدودة من فئته المستهدفة.. إلا إذا طالعتن أنتن أيتها القارئات العزيزات هذا الكتاب، واقتنعتن بعد قراءته بأنه يستحق عناء محاولة إيصاله إلى الرجال.

أنتن أفضل من يفعل ذلك بحذق ومهارة . فالنساء يتمتعن بالقدرة على التمييز والحس أكثر من الرجال، في المتوسط (وكما ستعرفن قريباً، إذ يجب أن نطلق على الأمر أنكن " تمكنتن من تطوير" هذه القدرة). كانت أمي تتظاهر بأن هذا الكتاب لن يفيدها على الإطلاق، وأنها ستلصق الفصل الثاني ببعضه حتى لا تقرأه، فهو في الحقيقة مُنفر بالنسبة للرجل العادي.

وسوف تلاحظن بسرعة شديدة أن الغرض من هذا الكتاب لا يتعلق بتصوير الرجال وكأنهم جبناء أو ضعاف يستحقون الشفقة، أو أنه يحاول إيقاظ غرائز الأمومة لدى النساء، أو حتى يرغب في إثارة شفقتهن كي تساند الأمهات أبناءهن والزوجات أزواجهن، ليستطيعوا التعامل مع ضعفهم بطريقة أفضل. بل إن هذا الكتاب يرغب في أن يجعل المسألة مفهومة حتى للنساء، لا سيما تلك الخاصة بأن الرجال يمرون بعملية تحول غاية في الصعوبة وذات مراحل. ويمكن مقارنة عملية التحول هذه بعملية تبديل الجلد لدى الحشرات على مدار حالة الانسلاخ والتحول. فنحن نتعرف على الفراشة في نهاية تلك العملية وليس في بدايتها.

وسوف تعرفن بأنفسكن تحديداً ما هو المقصود بما نقوله؛ فالمرء لا يولد رجلاً أو امرأة. إننا نحتاج إلى أن نُطوّر أنفسنا لنصير رجالاً أو نساءً، فنحن لا نُصنع هكذا.

وكتابنا هذا يعالج كيفية نجاح ذلك الأمر. أما الكتاب الآخر الذي يُصوّر كيف يحدث هذا لدى النساء، فيجب أن تكتبه امرأة.

أسر إليكم بكلمة فيما بيننا: " لا يبدو الأمر جيداً ". لقد انقلبت علينا الرياح، كما أن الأرض التي ظل آباؤنا وأجدادنا قادرين على الوقوف عليها، أصبحت زلقة بدرجة أسرع مما يمكنكم أن تتخيلونها. إن رفيقنا في ذات الجنس " ر . ف . باومايستر "، وهو واحد من أشهر رجال علم النفس الاجتماعي، كتب في ألبوم (الضيافة) الخاص به والذي منحه عنوان: " هل هناك أى شيء جيد بشأن الرجال؟ " "Is There Anything Good About Men?" يقول: " إن النفع الذي يُسديه الرجال لحضارةٍ ما، هو الاستغناء عنهم ". وإذا كان " جاك نيكلسون " الذي يبلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً - الآن - يستطيع أن يتذكر أنه قد أنجب خمسة آلاف طفل، فإن هذا لا يجعل المسألة أفضل بأي حال من الأحوال . إن سلوك الإبهار لدون جوان المنقرض، لم يعد جاذباً على الإطلاق. ومن يطلقون على أنفسهم صفة الرجال/ الشباب الأعلى مرتبة في عالم الرجال المعاصر، يحصرون ذواتهم داخل نشاط وتنافس محموم أثناء الصراع على المراكز الأولى في قائمة ترتيب " الأكثر حذقاً والأسرع والأفضل والمسئول عن كل شئ ". غير أن الرأي العام يعتبر هؤلاء الرجال المتنافسين مع بعضهم البعض قد خسروا السباق منذ فترة طويلة على أية حال.

" إن النساء رائعات ، أما الرجال فهم ، حسناً ... لم يتمكنوا من مواكبتهن ".

وها هم علماء بيولوجيا النشوء والارتقاء، يضعون توضيحاً بسيطاً : إن الرجال هكذا، كما هم على شاكلتهم - وأنهم سيظلوا في المستقبل أيضاً كما كانوا دائماً، حين يقولون: يكمن ذلك في الجينات الذاتية الأنانية التي يبرمجها الرجال وفقاً للنجاح الأقصى لإعادة الإنتاج على غرار " جاك نيكلسون ". ومن لا يقبل هذا المبرر ، يمكن أن يسوق له علماء بيولوجيا المخ والأعصاب توضيحاً تفسيرياً للغاية

بمساعدة وسائل التصوير التشخيصية للعقل البشري : الرجال يملكون عقلاً مغايراً لعقل النساء، ويعمل بشكل مختلف أيضاً. لذا فهم يستطيعون - وفقاً للوسائل الإحصائية - أن يفكروا فكراً مجرداً ومحدداً أو يوقفوا السيارات باستخدام الارتداد إلى الخلف بطريقة أفضل، بينما تنقصهم القدرة على التحسس والاستشفاف والقدرة على التفكير المتشابك. لذا فهم ليسوا قادرين على التخفيف من حدة الصراعات الاجتماعية بعقولهم تلك. أما من لا يرضيه تفسير علماء بيولوجيا النشوء والارتقاء أو علماء بيولوجيا المخ والأعصاب، فلعله يجد ضالته في التصور القائل بأن الرجال يأتون من كوكب المريخ بينما تأتي النساء من كوكب الزهرة.

و يكمن العنصر المشترك بين كل تلك المحاولات للإيضاح في أنها لا توضح أي شيء على الإطلاق. إنها تصف بطرق مختلفة تلك الظاهرة المعروفة بدرجة كافية دون شك: وهي أن الرجال ليسوا نساءً، ليس إلا. كما أن الرجال يختلفون عن النساء. أحياناً يتناسب رجل وامرأة معاً وأحياناً لا. أحياناً يسعد المرء لكونه رجلاً ولحياناً يكون هذا مبعثاً للخزي. كما يصعب دائماً تحمل أن توضع بوصفك رجلاً مع جميع الرجال الأخرين في كفة واحدة، حتى مع هؤلاء الرجال من العصر الحجري. وبالرغم من كون جيناتنا وجينات أطفالنا الذكور هي نفسها التي توارثناها من أسلافنا ذكور العصر الحجري، فلا يُعد هذا مبرراً أن نفكر ونتصرف مثلهم، ولا يجب أن يُجبرنا هذا على أن نعيش الحياة بصفتنا موزعين وناثرين للحيوانات المنوية، ولا أصحاب أعمال ناجحة مهووسين بالسلطة وبالانتصار على جميع منافسينا؛ فنحن لم نعد نعيش في العصور الوسطى.

إن ختام ذلك المشروع الضخم المعروف باسم " مشروع الجينوم البشري " يمنح المدافعين عن التحديد الجيني للسلوك البشري، فرصة أخرى لإعادة التفكير قبل أن ينشروا نظرياتهم القديمة. حيث إن الجينات هي التي توجه تكوين الزلال في الخلايا. لكن عقلنا، ومن ثم عقلنا الذكوري لا يعمل كما يعمل لأن خلايا الأعصاب تنتج أياً من أنواع الزلال في

أوقات محددة وفي مناسبات معينة . وقد اكتشف علماء بيولوجيا المخ والأعصاب، في تلك الأثناء، أن الأمر في العقول لا يتعلق بنوعية الزلال وتوقيت نسجها ونقلها من البرامج الجينية، بل بتوقيت وكيفية دخول الخلايا العصبية في علاقات مع بعضها البعض، وماهية الشبكات التى تكونها وماهية تشابكات خلايا الأعصاب التي تستقر من بينها، فضلاً عن ما ينتج من تحورها أو تفككها لاحقاً . إذ يقول العلماء الباحثون في مجال المخ: إن العقل ليس سيارة يمكن تركيبها وفقاً لأية مخططات بناء بطريقة محددة، ويمكن استخدامها طوال فترة ما حتى تُستهلك وتفشل في اختبار القدرة التقنية لينتهي بها المطاف وقد تكهنت في مقلب الخردة.

من الأفضل كثيراً تشبيه عقلنا بموقع بناء، تجري فيه طول العمر أعمال بناء إضافية، كما تجري تغيُرات في البناء، وهو الأمر الذي يتوقف على كيفية وغرض استخدامنا له بوصفنا رجلاً أو امرأة. وحتى الآن تعد نتيجة " سهولة التشكيل واللدونة " التي ترتبط بالاستخدام مجرد كوخ فقير مجدب ، فأحياناً ما ينشأ مبنى أكبر منه حجماً ولكنه معوج من عوامل الرياح، وفي بعض الأحيان يتحول هذا إلى قصر يقف على أساس راسخ ويظل قابلاً للتوسع حتى سن متأخرة. كما أن البرامج الجينية تقوم من أن لآخر بتوريد الخامات المطلوبة لبناء هذا البيت. أما نوعية البيت الذي سوف يُسفر عنه ذلك، في النهاية، فهذا أمر يتوقف على عوامل أخرى كثيرة، ولكن ليست لها علاقة في مجملها بالتراكيب الجينية، بينما ترتبط ارتباطاً وثيقاً باكتساب أرضية، وبالموردين، وبالمناخ .. كما ترتبط بالمخططات التي يضعها أي من المهندسين المعماريين، وبوضع موقع البناء، وبأي من المقومات والشروط المختلفة التي يمكن أن تُساق. وإذا كان الأمر هكذا فلا يعقل أن نعاير الرجال على وجه العموم، وكل فرد منهم على وجه الخصوص، بأنهم ضحايا عقلهم أو ضحايا الهورمونات التي تغمر عقولهم. وهكذا يصبح ملائماً القول بأن الوقت يحين للنساء لتولي مهمة نُفضل أن نوكلها إليهن: تنظيف دقيق للغاية للبيت.

وهذا هو بالضبط ما أريد أن أدعوكم إليه في هذا الكتاب. فالأمر يتعلق أولاً بتطهير للأساس. لذا نعالج في الجزء الأول، الأسس البيولوجية؛ أي طبيعة الجنس الذكوري، كما نتناول في النهاية الاختلافات بين الرجل والمرأة.

أما الجزء الثاني فهو يتناول عملية التحول إلى الذكورة؛ حيث يتم تطبيق ذلك بشكل ملموس للغاية وعلى التطور الذاتي. ومن لا يهتم في المقام الأول بالجنس الذكوري بوجه عام، بل بطريقة حياته الخاصة بوصفه رجلاً، فعليه أن يبدأ رحلة قراءته من هذا الجزء. لعل هذا يثير الاهتمام بعد ذلك للانشغال بالمسائل العامة المتعلقة بالحياة الجنسية والرجولة.

وحتى لا تضايقكم مسألة التنظيف هذه، وتشحذوا زناد فكركم بحثاً عن المبررات المعتادة التي عادة ما تطرأ على أذهانكم عندما يتعلق الأمر بمشاركتكم في عملية ترتيب فوضى وإزالة كراكيب داخل عقولكم الذاتية: فأنتم لستم في حاجة للتضحية بالوقت من أجل تنظيف البيت، ولا بالجهد، ولكن مجرد بعض التفكير العميق. كما أنكم لن تلوثوا أنفسكم بهذا العمل، لأننا عندما نبدأ في إعادة ترتيب تراكيب الفكر الخاصة بنا والتي نُقلت إلى المخازن، فإن هذا لا يؤدي إلى تصاعد الأتربة؛ ولذا أنتم لستم في حاجة إلى ملابس حماية خاصة لإتمام هذا العمل.

لنبدأ بالعمل إذاً. ويمكن أن يعتريكم الفضول بشأن ما سوف يُسفر عنه ذلك.

الجزء الأول :

الطبيعة الذكورية

بحثاً عن الأصول

من كان الرجل الأول ؟

هناك حكمة قديمة تقول - ويبدو أنها حكمة قديمة حقاً - إنه لكي يستطيع المرء أن يفهم نفسه جيداً فلابد أن يعرف من أين ينحدر؛ بمعنى أن يكون على معرفة بأصوله. فكما نعلم: آدم هو الأب الأول لكل الرجال، فقد خلق الله آدم بنفسه من الطين ثم نفخ فيه من روحه. فالمرء (الرجل) من خلق الله إذن.

ومن ناحية أخرى، كانت حواء التي خُلِقت من ضلع آدم هي التي أثارت مشكلة التفاحة والمُتسببة في الخروج من الجنة، وليس هذا المخلوق الطيب (الرجل). وهكذا لم يصبح آدم المسكين ضحية روح الاسكتشاف والرغبة النسائية في الابتكار فحسب، بل أضحى ذلك المطرود من الجنة هو الأب الأول لجميع الرجال؛ أي أن المرء (الرجل) لم تكن له يد في حدوث الأمور على هذا النحو.

وقد اتسع أفق النظرة إلى أصل نشأة الذكور، منذ ذلك الوقت، بعض الشيء. فالعهد القديم (التوراة) لم يذكر كيف خلق الله الذكور والإناث في الحيوانات، بل ذكر فقط أنه كان قد سبق وأن خلقهم. وقد نجح علماء تطور الجنس البشري منذ عهد داروين - إلى حد كبير - في كشف كيفية نشأة وخلق الذكور والإناث.

وفي طريق بحثنا اليوم عن الممثلين الأوائل للجنس الذكوري، لابد أن نهبط بدرجة كبيرة إلى أسفل سلم النشوء والارتقاء للكائنات الحية. وأود أن أرافقكم هنا بصفتي عالم في الأحياء وباحث في العقل، في هذه الرحلة التي تعود بنا إلى الوراء كثيراً، إلى المخلوقات وحيدة الخلية التي تقدم لنا الإجابة الأولى على السؤال عن أصول الجنس الذكري.

الحياة الجنسية لكائنات البراميسيوم

لقد وجد علماء الأحياء أدلة عديدة تشير إلى أن الكائنات وحيدة الخلية نشأت نتيجة لوجود علاقة تبادلية حميمة بين أنواع مختلفة من البكتيريا؛ أدت في النهاية إلى علاقة تبعية متبادلة، وأن هذه المخلوقات لم تكن قادرة على الحياة سوى في شكل كائن وحيد الخلية ذي نواة وعُضيات خلوية مختلفة. ولا تزال هذه البكتيريا قابلة للتغير، وصبغة التكوين الوراثي في حالة تغير دائم، وأنها تستطيع أن تتبادل أجزاء من هذه الصبغة الوراثية؛ أي بعض خصائص الحمض النووي (DNA)، مع بعضها البعض. ولتحقيق هذا الغرض يمكن لاثنين من البكتيريا أن تلتصقا ببعضها البعض لتكوين نفق صغير يكون رابطاً بينهما وموصلاً للصبغات الوراثية وحقنها. وعمليات التغير التي تحدث في هذه البكتيريا تتم بعشوائية ، كما أن عمليات التبادل متروكة في أغلبها للمصادفة. وقد أصبحت مثل هذه التغيرات، وعمليات التبادل العشوائية، تهدد استقرار هذا البناء الناشئ بصورة أسرع في الكائنات الوحيدة الخلية الأكثر تعقيداً في بنائها. ولم ينجح في البقاء منها سوى تلك الكائنات التي نجحت في تحجيم وحصر التغيرات الحادثة في الخصائص الوراثية أو إصلاحها. في الوقت ذاته، كان لابد من حصر تبادل المادة الوراثية لتلك الكائنات المتشابهة؛ أي الأفراد من نفس النوع. وقد نجحت الكائنات الوحيدة الخلية في ذلك باستخدام خدعة معينة - ألا وهي " اختراع " مواد معينة لنقل الإشارة.. تقوم الأفراد المختلفة من نفس النوع وتحت شروط محددة بتكوينها ثم إفرازها. وتقوم مواد نقل الإشارة هذه بجذب الكائنات وحيدة الخلية بالتبادل، والتي يمكنها تبادل أجزاء معينة من مادتها الوراثية إذا وصل بعضهم إلى الطرف الآخر.

ويظهر الاستخدام والأثر لمواد نقل الإشارة هذه، بوضوح، في الكائنات الوحيدة الخلية من نوع البليفاريزم الشبيهة بجفن العين والقريبة من البراميسيوم. ولتحقيق ذلك يجب وضع بعض أوراق

الشجر المتساقطة، نصف المتعفنة، في زجاجة مملوءة بالمياه - فترة من الزمن، تحت مصباح. سنجد أن تلك الكائنات الدقيقة، البدائية، القديمة، الوحيدة الخلية التي تدب فيها الحياة، عالقة بالأوراق وتنقسم بحيوية بواسطة التكاثر اللاجنسي. وهي تجد الغذاء بسهولة (على الأوراق المتعفنة)، كما تحصل على طاقة كافية من الضوء (المصوب عليها من المصباح). وبعد أن يتم التخلص من بقايا الأوراق المتعفنة بعد مضي ثلاثة أيام، يبدأ الغذاء الذي تحتاجه الكائنات وحيدة الخلية التي مازالت تتكاثر بسرعة كبيرة، يقل تدريجياً. إنها تسبح في كل مكان ويصل بعضها إلى قاع الزجاجة؛ حيث يجب عليها محاولة البقاء على قيد الحياة. وفي هذا العالم، في قاع الزجاجة، لا يزال هناك الكثير من المواد الغذائية (بعض بقايا أوراق الشجر وكائنات ميتة من نفس النوع)، والقليل من الضوء. ولا ينجح في البقاء والتكاثر بالقاع سوى أفضل تلك الكائنات التي تستطيع مواجهة هذا (النصف من) العالم بكثير من الغذاء وقليل من الطاقة. أما بالقرب من المصباح فهو عالم على النقيض منه، صحيح أن هناك نسبة كافية من الطاقة الضوئية اللازمة، إلا أنه تنقصه المواد الغذائية. وتجتمع هناك مجموعة الكائنات الوحيدة الخلية التي أصبحت أو نجحت في التحور لكي يمكنها التكاثر في هذا النصف الآخر من العالم.

وعند النظر إلى الزجاجة من الجانب، يبدو الماء فيها صافياً إلى حد كبير في المنتصف، بينما يبدو عكراً في أعلى الزجاجة وفي قاعها، بسبب اجتماع الكائنات المتخصصة من العالمين الموجودين في زجاجتنا تلك هناك. لكن ما تلبث أن تسوء حالة الكائنات في أعلى وأسفل الزجاجة لدرجة تمنعها من التكاثر (لعدم كفاية المواد الغذائية أو الضوء). ثم تحدث الأعجوبة! فجأة وكأن كلا النصفين قد تلقيا إشارة واحدة في الوقت ذاته، تبدأ كل مجموعة منها في السباحة من عالمها المختلف باتجاه المجموعة الأخرى، فتصفو المياه أعلى الزجاجة وأسفلها ويجتمع الكل في المنتصف.

وقد اكتشف علماء الأحياء الدقيقة - الآن - ما يدفع هذه الكائنات إلى هناك: فهذه الكائنات وحيدة الخلية تُصدر " في حالة الفشل في استمرار الحياة " فيرمونات؛ أي مواد جاذبة لا تستطيع كائنات المجموعة الأخرى مقاومتها. ويقوم كل معسكر منها باتباع أثر الرائحة والسباحة باتجاهها فيلتقيان في المنتصف. أما ما يفعلونه هناك فلا يمكن رؤيته إلا من خلال المجهر: إذ يلتصق كائنان من هذه الكائنات ببعضهما البعض واحد(ة) من أعلى وواحد(ة) من أسفل، ثم تنشأ فتحة في مكان اصطدام الأغشية الخلوية واندماجها مع بعضها مما يسمح بتبادل أجزاء من داخلها - وكذلك المعلومات الموجودة في تلك الأجزاء التي منحتها القدرة الخاصة على التعايش والبقاء سواء في أعلى أو أسفل الزجاجة.

لكن سرعان ما ينتهي هذا التبادل الرائع والعجيب للتجارب التي حدثت والمعلومات التي تم جمعها في هذين العالمين المختلفين. فما يلبث الطرفان أن ينفصلا ويبدأ كل منهما في المضي في طريقه بما أصبح لديه من معلومات أقل قدماً ومعلومات أكثر حداثة.

ويبدو أن هذا الاندماج قد فتح الباب لإمكانات جديدة لكل مجموعة، فهي تستطيع الآن مواجهة ما يقدمه عالمها الصغير أعلى أو أسفل الزجاجة بطريقة أفضل - لفترة من الزمن على الأقل - حتى يضيق بها المكان وتبدأ الحركة الجنسية في الزجاجة من جديد.

ولا يصعب تصور كيفية تحسين وتطوير هذه الأشكال الأولية من الانصهار وتبادل المعلومات بين أفراد من نفس النوع، على مدار ملايين السنين، حتى نشأت في النهاية كائنات مختلفة الجنس. وتحاول الأشكال الذكرية والأنثوية لكل نوع منذ ذلك الوقت أن تثبت أقدامها بواسطة الاستراتيجيات الخاصة بكل جنس منها، ليبدأ بمجرد نجاحهما في ذلك ، بالانجذاب إلى الجنس الآخر بواسطة إشارات الحب: بالروائح الزكية أو الغناء الرائع أو التلون بألوان متعددة براقة أو

بالقامة المثيرة للإعجاب أو السلوك المتكلف الواعد. وهكذا نشأ عن العلاقة الجنسية الأصلية للكائنات وحيدة الخلية - اللاجنسية، تدريجياً، كل ما يربط الرجل والمرأة في علاقة عاطفية جنسية ويجعلهما يقومان بتبادل كل ما جمعه كل منهما في عالمه الخاص من تجارب لتنصهر في بوتقة واحدة.

إن عملية التكاثر الجنسي التي يتحد فيها مخلوق ذكري مع مخلوق أنثوي من نفس النوع (لتبادل موروثاتهما) أظهرت شيئاً أكثر عجباً، ألا وهو القدرة على إدراك الأشياء الموجودة في العالم والتي لا نكون بحاجة إليها أثناء " الكفاح من أجل البقاء ". فالحشرات كان لابد لها من رؤية أو سماع أو شم الصفة الخاصة لشريكها الجنسي. وكل صفة جسدية أو صوت أو رائحة وكل سلوك؛ أي كل عمل أو صفة نشأت عن طريق التغير العشوائي للصفات الوراثية أو بواسطة التغير أو إعادة التركيب، كان يمكنها أن تكون من حيث المبدأ إيماءة لاختيار شريك الحياة.

وقد كان ذلك الاختيار المبني على الجنس، قائماً على إمكانية " استخلاص " الخصائص والقدرات المعنية بدقة، وخلال فترات زمنية قصيرة، وذلك من خلال التغير الطبيعي للصفات المميزة لتلك القدرات والصفات داخل شعب معين. وكان ذلك يحدث دائماً بالتزامن مع قدرات الاستقبال والربط اللازمة لإدراك ومعرفة وتقييم تلك السمات الخاصة بالشريك من الجنس الآخر. وفي هذه العملية المتقدمة باستمرار والمتراكمة والمتشاركة، لم يمكن ترسيخ عدد هائل من القدرات الشديدة التخصص والمجالات المتعددة الواسعة للصفات الخاصة بكل جنس فحسب، بل الصفات الجينية والتركيبات الوراثية من المخزون الجيني للأنواع الخاصة التي تُعتبر أساساً لهذه القدرات والسمات. وهكذا أصبح كل جنس أكثر وعياً لإشارات الحب للجنس الآخر، فأنتج هذا الأخير كميات متزايدة من عناصر الجذب والإغراء للطرف الأول.

ولكي نسير خطوة تلو الأخرى، ولا ننسى ما اكتسبناه من معرفة مهمة عن طبيعة وجوهر الجنس الذكري، يجدر بنا وضع سجل لتحديد المسار وتدوين أول ما توصلنا إليه من معرفة وهو:

ليس الرجال هم الذين قاموا باختراع الجنس
بل الجنس هو الذي اخترع الرجال.

اختراع الجنس الذكوري

إن الكائنات وحيدة الخلية مثل البراميسيوم لا تتكون من جنسين. وإن كان يمكن اعتبار ما تقوم به في زجاجة المياه هذه أو في أية بركة بالخارج، بمثابة النشاط الجنسي. فالنشاط الجنسي من الناحية البيولوجية لا يزيد على كونه تبادل أو امتزاج للمادة الوراثية بين فردين من نفس النوع. ولا تقوم الكائنات وحيدة الخلية بذلك دائماً، لكن في ظل ظروف معينة. أما الكائنات المتعددة الخلايا فهي تختلف عنها، لأنها تتكون من خلايا كثيرة مختلفة ومتخصصة. وبعد نشأة الكائنات المتعددة الخلايا، كان عليها ابتكار خدعة لتنفيذ ما كانت الكائنات وحيدة الخلية تقوم به. وقد نجحت الكائنات متعددة الخلايا في ذلك وتقوم به كالتالي: إنها لا تستخدم جميع الخلايا في بناء أجسامها التي تزداد تعقيداً، بل تحتفظ بخلايا معينة على شكل خلايا عروسية غير متمايزة[1] في مكان آمن داخل جسمها المتعدد الخلايا. ولا يجب على هذه الخلايا أن تتمايز في شكل خلايا متخصصة، بل تظل في طبيعتها مثل كل الخلايا وحيدة الخلية: لا نهائية القدرة. ولا يزال في الإمكان استدعاء إجمالي المادة الوراثية من أنوية الخلايا الموجودة داخل صبغياتها واللازمة لبناء العُضوية المتعددة الخلايا. وعند امتزاج الخلايا العِرسية لاثنين من العضويات المتعددة الخلية ينشأ ما يُسَمَّى باللاقحة التي ينتج عنها كائن جديد متعدد الخلايا. وعلى عكس التكاثر الناشئ عن طريق الربط أو التبرعم أو غيرها من أساليب التكاثر اللاجنسي، فإن هذا الكائن الحي، وهو اللاقحة الناتجة عن امتزاج خليتين أبويتين، يحمل مزيجاً من الصفات الوراثية للأبوين. وهو لم يعد مماثلاً لهما، بل مختلف قليلاً، أي أنه خليط عشوائي من المادة الجينية التي يحملها الأبوان. وإن كان الهدف الأساسي من التكاثر الجنسي هو خلق سلالة كبيرة، فإن هذه

---

[1] الخلية العروسية أو العرس هي خلية تأتي مجتمعة خلال الإخصاب في العضوية التي تتكاثر جنسياً (المترجمة).

الطريقة تُعتبر معقدة بل ومعيقة. وأغلب الكائنات متعددة الخلايا لا تلجأ إلى أسلوب التكاثر المعقد هذا إلا في حالات الضرورة. فهي تتكاثر عادة بطريقة لاجنسية، ولا تحتاج إلى أشكال ذكرية أو أنثوية.

إن الذكور، وكذلك الإناث بالطبع، لا تقوم بتكوين أنواع متعددة إلا عند ازدياد صعوبة البيئة الخارجية ووجود فائدة من عدم تشابه الجميع: أي عندما يكون تنوع الصفات الوراثية وبالتالي تنوع سمات جسدية معينة أمراً مفيداً. وهذا هو الحال مثلاً عند تأقلم طفيليات وعوامل مُمرضة معينة على مضيفها أو عائلها الدائم، أو حينما تتغير البيئة المحيطة بنوع من الأحياء تدريجياً: عندما يزيد عدد الأعداء أو يقل الغذاء أو أن تكون هناك تغيرات مناخية أو اضطرابات زائدة في توازن البيئة الطبيعية. لذا يكون من المفيد أن تقوم الكائنات متعددة الخلايا (مثل كائنات البراميسيوم) بتكوين أشكال ذكرية وأنثوية وأن تتكاثر جنسياً.

ويمكننا إذن أن نُدَوِّن في سجلنا لتحديد بقية المسار ما يلي :

لا ينشأ الرجال والنساء إلا عندما يكونوا هم - وما يفعلونه سوياً - شيئاً هاماً وله مغزى ومن ثم مفيداً لبقاء النوع.

وهكذا نكون قد حددنا متى، ولما، تظهر الحاجة إلى وجود الرجال. ولا ينقصنا هنا سوى معرفة كيف يتم خلقهم.

وهذا أمر يسير جداً لدينا نحن البشر. أولاً قمنا نحن بالتأثير في العالم الذي نحيا به، فجعلناه عالماً متنوعاً ومتغيراً مما أفقدنا - مثل غالبية الحيوانات الفقرية - منذ زمن طويل، الآلية اللازمة للتكاثر اللاجنسي بواسطة التبرعم أو البرعمة، وذلك بالطريقة الطبيعية على الأقل، وهو ما لا يعني بالطبع أننا غير قادرين من ناحية المبدأ على التوالد الإنباتي. فقد

توصل أطباء التكاثر إلى كيفية استنساخ نسخ متطابقة من الإنسان أيضاً وليس فقط من الحيوانات.

وثانياً: يتم عندنا تحديد جنس الجنين خلال عملية الإخصاب ذاتها بواسطة الصبغيات أو الكروموسومات المحدِّدة للجنس. فجميع البويضات تحوي بداخلها الصبغي إكس، بينما تحمل الحيوانات المنوية الصبغي إكس أو الصبغي واي . ويتحدد جنس اللاقحة بنوع الحيوان المنوي الذي يصل إلى البويضة ويخترقها أولاً: فإن تكوّنت لاقحة تحمل اثنين من كروموسوم إكس - يكون الجنين أنثى - وإن كانت اللاقحة تحمل كروموسوم إكس وكروموسوم واي- يكون الجنين الناشيء هنا، إن بقى كل شيء على هذا الحال، رجل.

وفي بعض الأنواع لا يتم تحديد الجنس مثلما هو الحال عندنا بواسطة الصبغي واي، بل حسب نسبة عدد صبغيات س بالنسبة للصبغيات الطبيعية الأخرى. فلا يكفي صبغي س واحد بل لابد من وجود صبغيين اثنين لكي ينشأ طائر ذكر. فالصبغي واي هو كروموسوم قد ضمر تماماً عند أغلب الطيور. ولا يهمنا سبب حدوث ذلك الآن، فهناك مفاجآت أكبر وأكثر إثارة في إطار بحثنا عن كيفية خلق الرجال.

إن خلق الرجال يمكن أن يحدث تماماً بدون تلك الصبغيات الجنسية. في هذا الحال لا يُترك تحديد الجنس للصدفة، بل يمكن صُنع الرجال (والنساء) حسب الحاجة والرغبة.

فبالنسبة لبعض الحيوانات، يكون من المفيد أن تُكيف جنس نسلها حسب وجود الجنس الآخر. وينطبق هذا بالدرجة الأولى على الأنواع (العالقة والدائمة الركازة) فعند التصاقها بمكان ما، وعدم قدرتها على اختيار من تتكاثر معه، لا يمكن الوصول إلى شريك من الجنس الآخر إن كان جميع المحيطين بها من الإناث أو الذكور فقط.

وهناك نوع مرن جداً من هذه (الحيوانات العالقة والدائمة الركازة) وهي رخويات البراميسيوم الشائعة التي تبدأ حياتها كذكر ثم تتحول بمجرد انتهائها من حياة التجوال واستقرارها على صخرة ما، إلى أنثى. وعندما يصل ذكر صدفة أخرى إلى حيث توجد الأنثى اللاصقة، يتزاوج معها ثم يتحول إلى أنثى أيضاً. ويستمر التحول الجنسي هذا حتى يتكدس في النهاية جبل كامل من هذه الأصداف، تكون بأسفله الإناث وفي أعلاه الذكور الذين لم يتحولوا إلى إناث بعد. وبعض أنواع الأسماك تفعل ذلك أيضاً. فالسرب يتكون كله من الإناث وذكر واحد كبير. وعند موته تتحول إحدى الإناث إلى ذكر حتى يمكن الاستمرار في عملية التكاثر الجنسي.

وهناك طريقة أخرى لتحديد الجنس تتمثل في تحديد إنتاج الذكور والإناث حسب ظروف البيئة المحيطة. فبعض أنواع السمك والسرطان والزواحف يتحدد جنس نسلها حسب درجة الحرارة التي يتم فيها حضن البيض. فعند ارتفاع درجة الحرارة يخرج عند السلاحف الذكور وعند الزواحف الإناث من نوع القاطور، أما عند التماسيح فلا ينشأ الذكور إلا في درجة حرارة معتدلة مثالية، وعند ارتفاع درجة الحرارة لا يخرج من البيض سوى الإناث.

وهناك كذلك بعض الأنواع التي تحدد فيها الأمهات جنس ذريتها، كما هو الحال عند القشريات المعروفة باسم براغيث الماء. وهي تتكاثر عادة لاجنسياً، وتتكون من الإناث فقط اللاتي لا يلدن سوى الإناث ولا يتزاوجن ببرغوث ماء ذكري. وعندما تبدأ بركة الماء في الجفاف وتزداد بها هذه القشريات، تبدأ إناث براغيث الماء هذه بولادة الذكور أيضاً التي تتزاوج بالإناث. ثم تبيض الإناث ما يُطلق عليه البيض الدائم الذي يستطيع الحياة رغم جفاف البركة. وعند زيادة المياه مرة أخرى تبدأ اللعبة السابقة من جديد.

أما عند النحل والدبابير، فإن الإناث لا تنشأ إلا عند قيام الأم - أي الملكة - بإضافة الحيوانات المنوية التي تكون قد حصلت عليها من ذكر النحل خلال رحلة الزواج من حويصلتها المنوية، إلى البيض. أما في حالة عدم قيامها بذلك، فإن البيض غير المخصب لا ينشأ منه سوى الذكور.

وهذه الأمثلة كافية لتسجيل النتيجة التالية في سجل خلق الذكور:

لا ينشأ الذكر إلا بمحض الصدفة أو مواتاة الظروف أو عند رغبة الأم في ذلك.

صُناع الرجال هم الإناث في الغالب

لأننا لسنا من كائنات البراميسيوم أو براغيث الماء أو التماسيح، فإننا نحن الرجال ندين بوجودنا كرجال من الناحية البيولوجية للصدفة. لكن ليس تماماً، كما سيتضح فيما بعد، فهناك حيوانات منوية أسرع وأقصر عمراً وابطأ وأقوى بنية من غيرها. وأولها هي صاحبة الصبغي زاي وآخرها ذات الصبغي إكس. وإن كان مدى جودة هذين النوعين في المضي قدماً في طريقه، ومن منهما يملك فرصاً أفضل في تلقيح البويضة لا يتعلق بالصدفة وحدها. وكذلك مدى إمكانية استمرار بذرة ذكرية في الحياة وخروجها إلى النور أقل تعلقاً بعامل المصادفة وحده. وتبين إحصاءات معدلات توزيع المواليد بين الأولاد والبنات أنه ليس كل شيء متروك للصدفة عندنا نحن البشر. فسيدات الطبقة الأرستقراطية والطبقات الغنية تلدن بانتظام مدهش وغريب عدداً أكبر من المواليد الذكور. بالضبط مثل الأوبسوم (الفأر الجرابي) وجرذ الهامستر وجرذ القندس وأنواع القرود العالية الرتبة التي تتمتع كلها بتغذية جيدة.

و يمكن دفع جرذان الهامستر إلى ولادة أعداد أكبر من الإناث في المعمل بحشدها في مكان ضيق. وينطبق الشيء نفسه على الفئران التي يتم الاحتفاظ بها تحت ظروف مجهدة. وفي مناطق الصيد الطبيعية، كثيراً ما تلد الإناث الأضعف والأكبر سناً - عدداً أكبر من الإناث، مما لا يمكن إرجاعه إلى عامل المصادفة وحده. أما عند الأيائل الحمراء، فإن المرتبة الاجتماعية للأم بوجه خاص هي التي تتحكم في أنواع مواليدها. فالإناث الأكثر سيطرة هي التي تلد على الأرجح ذكوراً.

أما بالنسبة للجنس البشري، فقد عكف العلماء بالطبع على البحث عن العوامل التي تؤثر في جنس المواليد وكيف يحدث ذلك. وبالرغم من أن النتائج ليست أكيدة تماماً، فإنه يبدو أن ولادة بنت أو ولد ليست

متروكة للصدفة وحدها. ففي خلال الحروب الكبيرة، وفي السنوات التالية لها، يزيد عدد المواليد من الذكور في تلك البلاد. والأمهات الأكبر سناً، وخاصة النساء الأكثر سيطرة، يلدن الذكور بنسبة أكبر. أما النساء اللاتي يعانين من التهاب الكبد المعدي أو الفصام وكذلك اللاتي يتناولن الخمور والسجائر بشراهة خلال فترة الحمل، فإنهن أكثر ميلاً لولادة الإناث. وكذلك السيدات اللاتي وُلِدن بعد ظهور ظاهرة سحابة التلوث في لندن عام ١٩٥٢، أو بعد إعادة توحيد شطري ألمانيا، وَلَدْن عدداً أكبر من الإناث دون الذكور. وفي بعض مناطق أستراليا التي تعتمد نوعية مياه الشرب فيها على سقوط الأمطار، يمكن تسجيل تراجع ملحوظ في معدلات المواليد من الذكور بعد مرور تسعة أشهر على قيام عاصفة شديدة ملأت بحيرات السدود وأثارت الطمي.

ولا يكاد يوجد موضوع شغل الإنسانية على مر كل الأزمان، بهذه الشدة، أكثر من البحث عن إمكانات تحديد جنس المولود. ويُوصي كل من أرسطو، وكذلك التلمود، بوضع فراش الزوجية باتجاه الشمال والجنوب عند الرغبة في إنجاب الذكور. كما كان الفيلسوف اليوناني أناكساجوراس مقتنعاً بالإضافة إلى ذلك، بأنه يجب أن تتم العلاقة الجنسية أثناء استلقاء الرجل على جنبه الأيمن لضمان إنجاب الذكور. وقد ظل هذا الرأي منتشراً انتشاراً واسعاً لفترة طويلة، مما دفع بعض النبلاء الفرنسيين حتى العصور الوسطى إلى استئصال الخصية اليمنى - لرغبتهم الدفينة في إنجاب الذكور وصعوبة البقاء دائماً في هذا الوضع.

لكننا لم ننجح حتى الآن في التدخل لتحديد جنس المواليد. ويحاول العلماء منذ سنوات عديدة، وباستخدام أساليب حديثة، فصل الحيوانات المنوية ذات الصبغي واي أو الصبغي إكس في المعمل. وهذا الأخير يحمل في داخله كمية أكبر من الحمض النووي تصل نسبة زيادتها إلى ثلاثة ونصف بالمائة. لكن تظل هذه الطرق مكلفة، ولا يمكن الاعتماد عليها بدرجة كافية.

إنه لأمر مؤلم وينم عن تطور يُرثى له أن يكون إجهاض الأجنة أمراً سهلاً، وكذلك قتل الأطفال حديثي الولادة رخيصاً؛ وخاصة من الجنس غير المرغوب فيه - وهم في أغلب الأحوال من البنات. وحسب التقديرات، أدت سياسة الطفل الواحد في الصين إلى قتل سبعة عشر بالمائة من جميع البنات حديثي الولادة. كما أن ستة وتسعين بالمائة من السيدات الحوامل في إحدى مستشفيات الهند، قررن القيام بعملية إجهاض بعد تحققهن من أن جنس الجنين هو أنثى، في حين أن أغلبية النساء تقريباً اللاتي عرفن بانتظارهن لمولود ذكر قد ولدنه بالفعل. وهذا هو بالتأكيد الحال في العديد من مستشفيات الهند.

وهكذا لا يبقى لنا هنا سوى تدوين نقطة مهمة في السجل :

تزداد صدفة نشأة الجنس الذكري غالبا وبنسبة أكبر عندما تتمتع الأمهات بظروف وحالة عامة جيدة، وأن تمنح ولادة مولود ذكر فرصة لتحسين وضع هؤلاء الأمهات اللاتي يقمن بولادتهم.

يمكن أن تكون النتيجة أسوأ :

ممثلون غرباء الأطوار للجنس الذكري

منذ البداية، عانى ممثلو الجنس الذكري من ثلاث مشكلات خطيرة حددت مسيرتهم التالية بعد ذلك. أولها في الواقع: الحاجة إلى عدد قليل منهم وخاصة في عملية الإنجاب. في الواقع هناك حاجة إلى نواة خلية واحدة. ولا تمثل البقية سوى إضافة لا حاجة لها. فكل وظيفة الرجل - عند النظر إليها بعين بيولوجية بحتة - وكذلك الهدف من وجوده، لا تتعدى مساعدة نواة الخلية لحيوان منوي واحد على الوصول قبل غيره في الوقت المناسب إلى المكان الصحيح، وهذا المكان هو بويضة الأنثى. أما البقية فهي تقوم بوظيفتها من حيث المبدأ بدون رجل، وكان يمكن احتمال هذا الأمر.

لكن الأسوأ هو المشكلة الثانية : فهناك عدد كبير من الرجال الآخرين الذين يتعرضون للمشكلة نفسها، والذين لا نحتاج منهم سوى إلى نواة خلية واحدة لإخصاب البويضة. لكن للأسف لا يوجد عدد غير متناه من النساء القادرات على الإنجاب والحاملات للبويضات المستعدات للإخصاب. فبعضهن حوامل بالفعل، والبعض الآخر لا يردن الحمل، وهناك مجموعة ثالثة غير قادرة على التبويض، وهذه البويضات التي تم إفرازها دقيقة في الاختيار ولا ترضى بالحمل من أي رجل.

وهو الأمر الذي تنتج عنه المشكلة الثالثة والأصعب التي يعاني منها الرجال : إذ يجب عليهم أن يكونوا أفضل من جميع الآخرين، وأن يكسبوا قبل غيرهم السباق التنافسي على العدد المحدود من البويضات المستعدة للإخصاب والسيدات المستعدات للحمل. وإلا فلن تكون هناك حاجة إليهم - بيولوجياً - بوصفهم ناقلين لتعليمات التركيب لذريتهم. وعند موتهم لن يبقى منهم شيء، وهذا تصور يتسبب في الإحباط الشديد.

لكننا نحن معشر الرجال الوحيدون الذين يمكن أن يصل بهم التفكير إلى هذا الحد. لذا نبذل أقصى ما بوسعنا من أجل نسيان هذا الإحساس بعدم الفائدة ونحاول تجاهله وتعويضه أو إبقاءه في اللاوعي، مما يجعلنا نجتنب بدورنا المزيد من المشكلات الأخرى. وسوف نُلقي نظرة أكثر دقة على هذه الإنجازات الرائعة الكثيرة التي يقوم بها الرجال في مختلف أرجاء الدنيا، لحل هذه المشكلة.

أما الآن فإنه يكفينا محاولة إيجاد إجابة عن السؤال حول كيفية تعامل نظرائنا من نفس الجنس في عالم الحيوان مع مشكلة عدم جدواهم في حالة نقص الذرية، وهو ما لا يستطيعوا التعرف على سببه أو إدراكه - ويمكننا أن نعتبر ذلك من حسن طالعهم.

إن رد فعلهم الغريزي على المنافسة الذكورية، وأهواء معايير الانتقاء للإناث، هو تفعيل ردود فعل السلوك الفطرية. وتُعد أنماط السلوك هذه في اختيار الشريك والمعاشرة ورعاية الصغار إن اقتضى الأمر، في كثير من الأحوال، أنماطاً غريبة بحق، لكنها ناجحة في الحقيقة، وإلا لكان آباؤهم قد انقرضوا بكل برامجهم غير المناسبة للتكاثر. وهذا هو ما يُطلق عليه مصطلح الاصطفاء منذ عهد "دارون"، وهو ما نتج عنه حتى اليوم كل الذكور من جميع الأنواع التي تسكن كوكب الأرض في وقتنا الحالي.

فمثلاً ينتهج ديوك الطائر المغني، وهو من رتبة طيور العصفوريات التي تقطن غينيا الجديدة، سلوكاً خاصاً جداً في عملية التودد والغزل؛ حيث يقوم هذا الطائر شأنه شأن كل طيور العصفوريات ببناء تعريشة فنية جميلة من الفروع والأوراق لجذب إحدى الإناث لإقامة علاقة معه. تتفحص الأنثى التي يتم استدراجها التعريشة بدقة، فإن أعجبها بناءها وكل ما بداخلها - تقوم بالتزاوج مع مُشيّد العريشة. وما يميز ديوك الطائر المغني هو أنها تقوم بتزيين عرائشها بريش شديد الجاذبية يصعب الحصول عليه. وهم في ذلك يستخدمون ريشاً للزينة يسقط خلال فترة

تغيير الريش من أحد عصافير الجنة يُدعى ملك ساكسونيا أو حامل الراية Wimpelträger "King Of Saxony". وهذا الريش طويل للغاية تنمو منه واحدة أعلى كل حاجب وتشبه عامود الصلاة في التبت، تزينها عشرات (الرايات المربعة) الزرقاء. ولا تنمو هاتان الريشتان لذكر عصفور الجنة إلا في عامه الرابع، ولا يفقدها سوى مرة في العام في فترة تغيير الريش. ومهمة البحث هذه عن تلك القطع الفنية الفريدة لبناء عريشة ليست مهمة سهلة على ذكور الطائر المغني؛ خاصة أن الرجال من السكان الأصليين لتلك المناطق يتلهفون بشدة للحصول على هذا الريش. وعند حصول هذا الطائر على مثل هذه الريشة، وبعد وضعها في عريشته، فإنه يجب أن يكون حريصاً جداً حتى لا يتمكن طائر آخر من سرقتها. كما يمكن لأنثى هذا الطائر أن تقر عينها وتطمئن لكون من حَظِّي باختيارها لا يتمتع بلياقة كبيرة فحسب، بل سيصبح قادراً على البحث عن أغراض نادرة أو سرقتها والدفاع ببسالة عن ممتلكاته ضد اللصوص. هذا الطائر الدؤوب في بحثه عن كيفية تكوين تعريشة جميلة، سوف يشعر بالارتياح لسهولة جذب أنثاه مقارنة بما يمكن أن يتعرض له الذكور من الأنواع الأخرى في محاولتهم للظفر بالأنثى.

فلو كان هو ذكراً للعنكبوت، لكانت أنثاه التهمته عن آخره فور انتهاء عملية التزاوج. ولن يمكنه الإفلات من هذا القدر إلا بتقديم هدية لحبيبته في شكل ذبابة قام بصيدها وهروبه مسرعاً بعد التزاوج، بينما مازالت هي مشغولة بتناول هذه الذبابة.

أما ذكور النحل، أي اليعسوب، فلا يسعهم إلا حسد ذكور العنكبوت. فعندما تكون الملكة في طريقها للحصول على زوج، يتعين على الذكور التحليق رأسياً خلفها لمسافة كيلومترات عديدة. وأغلب ذكور النحل لا تصل إلى الهدف باستثناء ذلك اليعسوب المحظوظ الذي ينجح في التحليق خلفها في تلك الارتفاعات الشاهقة، ويُسمح له بعدها بالتزاوج معها. في الوقت نفسه تتحرك آلية خاصة في عضو التكاثر تؤدي إلى انفجار بطنه

ومن ثم إلى موته الحتمي. وتعاني كثير من الحشرات الأخرى من هذه الوحشية نفسها خلال عملية التزاوج.

لكن بالمقارنة، تُعتبر ذكور الحيوانات الفقرية أفضل كثيراً، مثلما هو الحال بالنسبة لأسماك الضفدع التي تعيش في أعماق البحار. إنها تنكمش لكي تصبح تابعاً لإناثها، حيث تحمل الإناث ذكورها مثل هوائي صغير على رأسها ولا تتركها إلا مرة واحدة لإتمام عملية التزاوج.

وهناك حالة متطرفة أخرى تحدث لدى فرس البحر. فهنا يقوم الذكور بكل ما تقوم به الإناث. حيث إن لديهم جراباً بالبطن يظهرونه لإناثهم وقت التزاوج. وبعد بعض ألعاب الغزل والغرام المعقدة، تلتف نيول الطرفان حول بعضها البعض ويضغط كل منهما على بطن الطرف الأخر. عندئذ تضخ أنثى فرس البحر بيضها عبر أنبوب إلى داخل الجيب الجنيني للذكر؛ حيث يقوم بتلقيحها عندما يضخ حيواناته المنوية فيها. لتختفي الأنثى بعدها بلا رجعة، بينما يرقد الذكر فوق البيض حتى يفقس. ويتضح أن عملية " الولادة " هي عملية شاقة جداً بالنسبة له أيضاً؛ حيث يؤدي الضغط الشديد إلى انفجار الغشاء الواقع أعلى الجيب الجنيني وخروج صغار فرسان البحر. كما تقوم بعض الطيور أيضاً بعملية تبادل الأدوار هذه.

أما عند الثدييات، فإن التنافس الدائر بجميع الوسائل بين الذكور، والذي قد يتحول إلى صراع خطير في بعض الأحيان، يسبب المشقة للذكور ويؤدي إلى تكون عضلات وأدوات للقتل وأنماط من السلوك تُخيف الأخرين.

وبالنظر إلى تعدد الأنماط التي كَوَّنها الرجال في خلال عملية النشوء والارتقاء لكي يعجبوا الإناث، تبقى معرفة واحدة هامة نقوم بتدوينها في سجلنا :

الرجـــال مســـتعدون لتحمـــل أي شـــيء ، ومسـتعدون لأن يتطـوروا كـى يتمكنـوا مـن الفوز بالأنثى المناسبة.

ما فائدة الرجال ؟

أمام كل رجل خياران يعيش حياته وفقاً لهما : فمن ناحية يمكنه أن يحاول فهم نفسه، أي أن يعلل أسباب الحالة التي آل إليها ولماذا أصبح هكذا.. لماذا يفكر ويشعر ويتصرف بهذه الطريقة في مواقف معينة أو على وجه العموم. ويدفعه هذا الطريق خلال حياته إلى التعرُّف إلى ذاته بطريقة أفضل والقيام بتشكيل حياته بأسلوب أكثر وعياً، بناءً على هذه المعرفة.

ومن ناحية أخرى، يحصل كل رجل على فرصة الحياة كما يتسنى له - للاستفادة الأفضل من كل ما يقابله في الحياة. وتكمن ميزة هذه السياسة في أنها لا تتطلب منه أن يتخذ القرارات بنفسه. إذ يكتشف الإنسان منذ طفولته أنه يستطيع أن يعيش حسب تطور الظروف. ويتّبع أغلب الرجال هذه الاستراتيجية التي بدأوها في صباهم، في جميع مراحل حياتهم بعد ذلك، بشكل آلي.

وليس من الشاق أن يصبح الرجل على هذه الشاكلة. فالرجل يتبنى تلقائياً طُرُق التفكير وأنماط الشعور والسلوك المميزة للرجال الذين ينشأ ويترعرع معهم. وأغلب هؤلاء الرجال لا يطرحون على أنفسهم السؤال عن سبب تفكيرهم وشعورهم وتصرفهم على هذا النحو المتكرر كل يوم.

ويُلاحظ عند زملائنا الذكور (في عالم الحيوان) ممن يملكون عقلاً أقل قدرة على التعلم، أن هناك أنماط ربط للخلايا العصبية هي المنوطة بتحديد السلوك.. والتي لم تتشكل من خلال التجارب الذاتية مع من يقتدون بهم فحسب، بل تكوَّنت بسبب تأثير العوامل الوراثية خلال فترة نمو المخ.

تتضح ميزة هذه العملية بجلاء : فهي تفلح دائماً؛ حيث يؤدي المخلوق الذكري وظيفته كما يجب، من أجل الحفاظ على النوع. فالذكور من الحيوانات تعرف بالغريزة ما المهم في حياتها وما السلوك المطلوب. ولا يتعرضون لمخاطر الركض خلف النماذج الخاطئة؛ لذا لا يجدون سبباً ولا تُتاح لهم الإمكانية من الناحية العقلية ليتساءلوا عما إذا كان ما يفعلونه صحيحاً أم لا.

ليس من السهل

أن تكون ذكراً ناجحاً

يُعتبر الديك البري الأسترالي مثالاً نموذجياً لهذه النوعية من الرجال. فعندما يشتد تأثير الهورمونات في وقت البحث عن أنثى للتزاوج ، يقوم كل ذكر منه ببناء تل هائل يتكون من طنين من أوراق الأشجار والفروع والتربة والرمال. وتُعتبر هذه الديوك من أفضل بناة السماد العضوي في العالم. فالتل الذي يشيدونه دائماً ما يكون بالحجم والشكل والتكوين الصحيح بالضبط الذي يسمح بالوصول إلى درجة الحرارة المناسبة اللازمة لحضانة البيض وفقسه. وتبحث الدجاجات عن أفضل التلال التي بُنيت، لتتزاوج مع هؤلاء المُشيِّدين النشيطين ثم تضع الدجاجات بيضهن ويختفين. وبعد أن يفقس البيض يحفر الصغار طريقهم إلى سطح التل ويغادرونه، فقد أصبحوا قادرين على الاعتناء بأنفسهم. وبعد مرور عام يكون صغار ديوك المناطق النائية قد كبروا وأصبحوا قادرين على بناء تل سماد هائل مماثل.

عند حمل أنثى أحد بُناة التل لا يشعر الذكر القائم ببناء التل بذلك، شأنه في ذلك بالضبط شأن آبائه الذين لم يشعروا بذلك أيضاً. وإذا شعر أحد الديوك بالكسل وعدم الرغبة في بناء تل سماد خاص به، فيمكنه أن يطرد أحد البناة الآخرين من تله؛ أي أن يسرق منه تله. ولا تشعر الإناث بذلك أيضاً، فما يهم هو أن يكون التل كبيراً بالدرجة الكافية. ولا يهمهن بأي حال من الأحوال إن كان من تزاوجن به هو أحد بُناة تلال السماد المهرة أو أحد اللصوص الأذكياء. غير أن الأمر يمكن أن يكون مفيداً بالنسبة للديوك من الجيل القادم، الناتجة عن هذا التزاوج. فعندما تشح المواد اللازمة لبناء تلك التلال، يفوز أفضل اللصوص بهذا السباق التنافسي. كما أنهم يُوَرِّثون ذريتهم من بعدهم تلك الصفات الوراثية الخاصة بهذه المواهب المميزة.

لقد جرب ممثلو الجنس الذكري في عالم الحيوان كل شيء تقريباً، ووصلوا إلى أقصى حدود إمكاناتهم لما من شأنه استحواذ كل نوع على إعجاب إناثه وإقصاء جميع المنافسين بفاعلية عن الملعب أو التخلص منهم بذكاء. ومن نجح منهم في ذلك هو فقط من توافرت له الفرصة لنقل تلك الصفات الوراثية إلى ذريته القادمة، عندما تمتزج صفاتهم الوراثية مع تلك الصفات الوراثية للإناث من خلال عملية إعادة ترتيب الجينات ونقلها إلى نسلهم من الذكور والإناث على حد سواء. فلو كان نسلهم ذكوراً، لأمكنهم القيام بتطوير هذه الموهبة الخاصة التي توارثوها من آبائهم. ولكانوا قد أصبحوا بناة تلال مجتهدين ولصوص مهرة وطواويس مزينة ببهاء ومناضلين باسلين أو مغردين ساحرين. أما إذا ورثت الإناث هذه الصفات الوراثية من آبائهن، فإنهن حتى وإن لن يقمن باستخدامها بأنفسهن فسوف ينقلنها إلى أبنائهن من الذكور. وهكذا فإن الصفات الوراثية لكل هذه الذكور والتي جعلتهم قادرين على تكوين سمات معينة وتطوير قدراتهم والقيام بوظائف خاصة تعمل على غزو قلب الأنثى والتزاوج معها وتربية الصغار من نسلهم، تبقى كلها في نسلهم من بعدهم.

فلا عجب في وجود رجال كثيرين بيننا، نحن معشر الرجال اليوم، ممن يسلكون سلوك أسلافهم : بوصفهم عاشقين مخادعين أو بُناة منازل نشطاء أو طواويس أنيقة أو راقصين أو مطربين رائعين أو طهاة يستحقون الإعجاب أو رياضيين مهرة أو ذوي لياقة خاصة، أو ذوي عضلات وقوة طاغية أو مواطنين أذكياء أو مغامرين شجعان أو صامتين غامضين أو متحدثين مثقفين. والرجال قادرون على تكوين وعرض مختلف أنواع القدرات النابعة من الصفات الوراثية الخاصة لكل واحد منهم، طالما كانت هناك نساء ترى أن هناك جاذبية خاصة لرجال بهذه الصفات إلى الدرجة التي تجعلهن يقعن في غرام مثل هؤلاء الرجال أو يرتبطن بهم، لينتج عن هذا الارتباط في يوم ما أطفال سواء عن قصد أو غير قصد.

وقد أثبت علماء أحياء الجزئيات الآن، وبواسطة تحاليل الحمض النووي، ما يبعث على الخوف : ليس كل رجل بل واحد من كل ثلاثة رجال في المتوسط نجح على مر تاريخ تطور البشرية في إتمام عملية التناسل. وينحدر الجنس البشري الحالي من ضعف أعداد النساء مقارنة بالرجال. والكثير من الرجال أنجبوا أبناء كثيرين، ولكن هناك رجال لم ينجبوا أبداً. وبالنظر إلى الصفات الوراثية فإننا نحن الرجال، شأننا شأن النساء تماماً، لا نزال نحمل بداخلنا ما توارثناه من هؤلاء الرجال القلائل الناجحين في عملية التناسل. وما نحن عليه اليوم ندين به وبقدر خاص لهؤلاء " الفائزين " وليس " الخاسرين ".

وهذا يجعلنا نتوقع أن تكون الصفات الوراثية وحدها المسئولة عن نجاح عملية التناسل لدى الرجال. لكن ما يمكن أن يكون صحيحاً على نطاق واسع عند الحيوانات، لا يجب أن ينطبق تلقائياً علينا. فالسؤال عما إن أمكن لصبي صغير (أو فتاة صغيرة) النجاح في تطوير هذه القدرات الخاصة، فالإجابة أنها لا تتعلق لدينا - بالمقارنة بجميع الحيوانات ذات مخ أقل قدرة على التعلم - بالخواص الوراثية المتوفرة فحسب، بل بالقدرات التي تسمح بتطوير ونشر تلك الصفات: إنها تتعلق بالحالة الجسمانية والنفسية للأم خلال فترة الحمل، وبقدرتها على إشباع الرغبات الأساسية، الجسمانية والنفسية العاطفية لمولودها بعد الولادة، وبالأطر الاجتماعية الثقافية التي يجدها في جماعة معينة في وقت معين. كل هذا ليس له علاقة بصفاتنا الوراثية وإن كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة التي يجد الأبناء - سواء كانوا أولاداً أو بناتاً - أنفسهم قد نموا فيها، وفي كثير من الأحوال التي يجدون أنفسهم قد أجبروا على النمو فيها.

وعلى مدار تاريخنا حتى الآن، كان معدل فرص الرجال في الإنجاب دائماً أقل من فرص النساء. فمن لم يقدم من الرجال على أي

مخاطرة أو من لم يشتهر بتحقيق إنجازات مميزة أو من لم يفرض سيطرته على النساء بوحشية سافرة، أو من كان مشغولاً بالدرجة الأولى بتأمين حياة مريحة لنفسه، لم تكن لديه فرص كبيرة لإنجاب الأطفال. فالمغامرون والغزاة والتجار والمكتشفون والمخترعون الناجحون، وكذلك المتفاخرون والمحتالون واللصوص، كانوا منذ قديم الأزل أصحاب الفرص الأفضل.

هذا هو العالم وثقافة الرجال التي نما وترعرع في داخلها الصبية الصغار، التي تم فيها " صنعهم " لكي يصبحوا رجالاً، لكي يكونوا مثل هؤلاء الرجال المحبون للمغامرة وتجربة ما هو جديد والاستعداد للمخاطرة بحياتهم من أجل شيء واحد فقط ألا وهو بلوغ احترام ومكانة وتقدير أو على الأقل إحراز الإعجاب والسلطة والغنى. لذا لا يزال الرجال أكثر من النساء اهتماماً، حتى اليوم، بتعريف أنفسهم بما يحققونه من إنجازات خاصة.

وهم في محاولاتهم كصبية صغار لتحقيق إنجازات متميزة، يستخدمون عقولهم على نحو خاص. وتتكيف عقولهم باضطراد بهذا النوع الخاص من استخدام العقل حتى يصبحوا في النهاية رجالاً بالغين غير قادرين على التفكير في شيء آخر أو الشعور به أو أدائه.

وهم يحققون دوماً شيئاً خاصاً : فهم أول من يتسلقون أعالي قمم الجبال (وكثيراً ما يلقون حتفهم) ويبنون السفن ليكتشفوا القارات المجهولة (وقلما يرجعون من رحلاتهم تلك) ويقطعون المسافة إلى القطب الشمالي أو الجنوبي سيراً على الأقدام (حيث يموت كثير منهم تجمداً) ويبنون الطائرات ويحلقون في الأجواء (وإن سقط كثير منهم مرة أخرى) ويبدأون الحروب ويغزون بلاداً أخرى (ويتكبدون الهزائم المريرة ، ناهيك عن المعاناة التي يتسببون فيها) ويجلسون طوال حياتهم في غرف دراسية ويحاولون حل ألغاز العالم (وينسون كل شيء بما في ذلك زوجاتهم وأبنائهم). وبينما يتوغل الرجال في بحثهم هذا عن المكانة والتقدير في جميع أرجاء العالم الحقيقي والفكري، فإنهم يقومون

باكتشاف هذا العالم إلى آخر بقعة فيه. وهم في ذلك يسهمون إسهاماً كبيراً في التطور التقني والاقتصادي والعسكري والفكري؛ أي في التطور الثقافي بمعناه الواسع، ليس لأنفسهم فحسب، بل للناس كافة ، بما في ذلك النساء والأطفال وكل من يولدون بعدهم. ويقوم الرجال بتوسيع رقعة قدرات الإنسانية على التطور حتى وإن تخلف بعضهم عن الركب ، سواء لهلاكهم أو لنسيانهم القيام بعملية التكاثر لفرط إعجابهم بعملهم الفذ.

وكل ثقافة وحضارة بحاجة إلى مثل هؤلاء الرجال الذين يبحثون عن أقصى الممكن، والمحبون للمخاطرة إلى حد التطرف، و في المقابل تكافئهم بالمجد والشرف على استعدادهم للتضحية بالنفس.

وتعمل هذه الثقافة والحضارة بطريقة عملية بسيطة وذلك بحساب النفقات ومدى الانتفاع : إن كان هناك شيء خطير أو محرج أو قذر يجب القيام به، فإنه يتم مكافأة من يتولى هذه المهمة. وبما أن أي ثقافة بحاجة إلى جميع الأمهات، بينما يمكن الاستغناء بدرجة أكبر عن الرجال، تتجه معظم الثقافات إلى دعوة رجالها لمثل هذه الأعمال المرتبطة بالنفقات المرتفعة والنفع الكبير وتشجيعهم والإيحاء لهم بها. و يستطيع بعض الرجال تحقيق فوائد هائلة على أساس هذه الاستراتيجية ، في حين يدمر آخرون منهم حياتهم من خلالها.

وفي نهاية هذا الفصل الحزين لا يسعنا سوى تسجيل هذا الاستنتاج والتأمل فيه :

إن ما يجعلنا نحن الرجال مفيدين لثقافتنا هو إمكانية الاستغناء عنا.

يمكن الاستغناء عن الرجال بوجه خاص؛ حيث يعتقدون أنه لا غنى عنهم.

وبالنظر لهذا الجهد الهائل بغرض التكاثر، والذي يقوم به ممثلو جنس الذكور في عالم الحيوان برمته ووصولاً إلينا نحن البشر، فإنه يجدر افتراض أن التقسيم إلى جنسي الذكور والإناث وما يتبعه من الاتحاد الجنسي لا يخدم سوى هدفاً واحداً وهو عملية التكاثر.

لكن ذلك الافتراض خاطيء بكل أسف. فالتكاثر يمكن أن يتم بكل سهولة من دون كل هذه الجهود والتعقيدات وبدون ممارسة الجنس. صحيح أن ذلك لم يعد ممكناً إلا بالاستعانة ببعض الخدع التقنية لطب التكاثر. لكن التكاثر اللاجنسي كان منتشراً انتشاراً كبيراً في أشكال الحياة الأبسط والأقدم. وهي تنجح بسهولة وبدون وجود رجال (ونساء).

فالكائنات وحيدة الخلية تنقسم إلى جزءين. وأشجار الصفصاف تنمو من تعقيلات[2] والهندباء يفرز بذوراً مستنسخة من مورثات للنبتة الأم. ودبور الشربين المنشاري العذراء تلد نسلاً من العذراوات والتي تكون حاملاً بالفعل في مزيد من العذراوات. وكذلك قمل النبات المعروف باسم المنّ[3] كما تتكاثر مفصليات الأرجل وأنواع معينة من الأسماك وبعض أنواع السحالي - في بعض الأحيان على الأقل - دون الحاجة إلى ذكور.

وسواء قبلنا أم لم نقبل، فإننا لا نستطيع التنصل من هذا التدوين في سجلنا :

---

[2] تعقيلات: قطع للتكاثر بالتبرعم (المترجمة).

[3] حشرات ماصة للنباتات.

إن عمليـــة التكـــاثر ليســت بحاجــة إلـــى الرجال بالضرورة.

لكن هناك ما هو أسوأ.

صحيح أن عملية التكاثر المحضة يمكن أن تنجح بدون ذكور، لكن أينما كان هناك لقاء جنسي ويحدث تبادل جنسي، فلابد من وجود الجنسين.. وهنا - كما نعتقد - تكمن الضرورة في وجود الرجال. لكن هذا الافتراض خاطيء أيضاً.

فحقيقة وجود تكاثر جنسي لا تشترط بالضرورة وجود أجناس مختلفة ولا تشترط وجود جنسين، لا سيما إن كانا على هذا القدر الكبير من الاختلاف كما هو الحال بالنسبة للرجال والنساء.

وكثير من الفطريات تتكاثر دون تكوُّن أي كائن ذكوري على الإطلاق؛ إذ أنها تحوي آلافاً من الأجناس المختلفة التي تبدو كلها متشابهة وجميعها قادرة على التزاوج باستثناء التزاوج مع نفس الجنس.

وفي مملكة الحيوان هناك العديد من الكائنات التي تعيش على هيئة خنثى، أي على شكل مخنث، مثل ديدان المطر حيث تكون كل دودة ذكر وأنثى في نفس الوقت.

قد يبدو التكاثر الجنسي بواسطة جنسين فقط من النظرة الأولى مسبباً لكثير من الضرر، لأنه يعني أنه يمكن التزاوج فقط مع نصف العدد من نفس النوع الذي نقابله. فلو كنا مخلوقات مخنثة لأمكن لكل مخلوق آخر أن يصبح شريكاً لنا. ولو كان لدينا عشرة آلاف جنس مختلف مثل كل فطر سام، لكان يمكن أن نصادف في كل لقاء من يصلح للتزاوج معنا.

وهكذا تختفي بارقة الأمل الأخيرة هذه، ويمكننا أن ندون في سجلنا :

حتى الجنس يصلح ويؤدي وظيفته تماماً بدون رجال .

لكن يبدو أن الأمر لا ينجح تماماً بدون نشاط جنسي، أي بدون التبادل الجنسي للصفات الوراثية بين أفراد من نفس النوع. وهنا يجب أن نطرح على الساحة السؤال عن فائدة الجنس. إن نظرنا قليلاً إلى العالم الحيوي من حولنا، يتضح لنا سريعاً أن هناك نوعان مختلفان من عمليات التكاثر الجنسي وهما التكاثر الجنسي الاقتراني والتكاثر الجنسي الاندماجي .

في عملية التكاثر الجنسي الاقتراني يكوّن الطرفان ما يشبه أنبوباً بين خليتين يتم من خلاله نقل وتبادل الجينات الوراثية، لكن بدون حدوث امتزاج بين الخليتين. وهذا لا يحدث لصعوبة ذلك، فأجزاء الخلية المختلفة وعُضيّاتها منظمة تنظيماً دقيقاً، وحدوث هذا الامتزاج سوف يؤدي إلى إعاقة هذا التنظيم بدرجة كبيرة. لذا يوجد عند هذه الأنواع التي تمارس التكاثر الجنسي الاقتراني - مثل الهدبيات والفطريات - العديد من الأجناس المتنوعة. وهي لا تتبادل المادة الجينية إلا إن كانت لا تمتزج.

أما التكاثر الجنسي الاندماجي فإنه يعني اندماج خليتين. وهذا لا يحدث إلا في حالة قيام إحدى الخليتين أولاً بالتخلص من المكونات الخليوية لها. وهو ما تقوم به الأمشاج الذكرية. ويتم دائماً تسمية ذلك الجنس الذي يُنتج الحيوانات المنوية أو حبوب اللقاح بأنه الجنس الذكري؛ أي ينتج أمشاج صغيرة متحركة خالية من أغلب مكونات الخلية. أما الإناث فتقوم بإنتاج أمشاج قليلة " كبيرة " غير متحركة، لا تزال خلايا كاملة.

فالحيمن الواحد لا يتكون سوى من نواة خلية واحدة وذيل مروحي به شحنة متقدرة يتم استخدامها لشحن الطاقة اللازمة لتحريك الذيل

المروحي. ويتخلص الحيمن من المروحية ومحركات الطاقة عند دخوله في البويضة، ولا يبقى منه سوى النواة.

وهذا بصيص أمل على الأقل. فيبدو أن هذا النوع من أنواع الامتزاج الجنسي للصفات الوراثية، لا ينجح بدون الرجال.

لكن لا تزال الإجابة مفتوحة عن السؤال، عن سبب وجود هذا النوع من التكاثر الجنسي وفائدته وأهمية حدوثه - وكذلك عن وجود الجنس الذكري - في هذا النوع من عمليات التبادل الجنسي. ولمعرفة ذلك يجب التعرُف عن كثب على الظروف التي تتحول فيها النباتات أو الحيوانات من التكاثر اللاجنسي إلى التكاثر الجنسي.

فالعشب مثلاً يتكاثر في موضعه بواسطة جذوع إضافية لاجنسية، أما الانتشار في أماكن جديدة فلا يتم إلا بواسطة حبوب لقاح تكونت بالتكاثر الجنسي وتوزعها الرياح. فإن كان يجب على النسل الانتقال إلى أماكن بعيدة فيفضل ألا تكون كلها متماثلة، لأن الأماكن الأخرى لا تشبه عادة البيئة المألوفة. أما التكاثر اللاجنسي فيشبه لعبة الحظ المتشابهة الأرقام في كل ورقة. فعند سحب الرقم الخاطيء تصبح جميع الأرقام الأخرى عديمة الفائدة. لكن التكاثر الجنسي يؤدي إلى وجود تنوع أكبر من أرقام اليانصيب. وفي حالة وجود احتمال أكبر بأنه يجب على النسل القادم أن يتحمل ظروفاً قد اختلفت، يكون التكاثر الجنسي أكثر فائدة، فقد تكون هناك الجائزة الكبرى من بين كل هذه الأرقام الخاطئة. وعندما يُسهم التكاثر الجنسي في طرح هذا التنوع، يكون الانتقال إلى نمط التكاثر الجنسي مفيداً أيضاً في حالة تصادم المعروض من الغذاء مع زيادة الكثافة العددية. ويمكن مراقبة ذلك جيداً في مستعمرات قمل النبات وبراغيث الماء والدوّارات أو الدولابيات التي تكاثرت بصورة كبيرة لدرجة عدم وجود غذاء كاف للجميع. ويستطيع بعضها ممن هو مختلف قليلاً أن يتكيف بصورة أفضل قليلاً مع الموارد المحدودة الموجودة. لكنهم لن يتغيروا إلا بواسطة الامتزاج الجنسي.

وأخيراً، وهو ما يبدو أن له مغزى خاص عند كل الحيوانات الأكثر رقياً، فإن التكاثر الجنسي ينتج عنه تنوع أكبر لكل من "الأبواب" و"الأقفال" التي تستخدمها بشكل خاص الجراثيم الموجودة على هيئة بكتيريات أو فيروسات للنفاذ إلى داخل عائلها.

فالطفيليات التي تحمل المفتاح الصحيح يمكن أن تقضي على نوع يتكاثر لاجنسياً في فترة وجيزة ، لكنها لا تستطيع ذلك مع نوع يتكاثر جنسياً. فالتكاثر الجنسي ينتج عنه دوماً أشكال جديدة من "الأبواب" و"الأقفال" التي لا تناسب - ولو لفترة محدودة - "المفاتيح" التي تستخدمها هذه الطفيليات.

ولأن المضيف يحتفظ بكل الجينات العديمة الفائدة في لحظة حدوث تبادل المواد الوراثية بواسطة التكاثر الجنسي، فإنه يستطيع في حالة نجاح الطفيليات المتحورة - التكيف مع الأقفال الجديدة لمضيفها، أن تعيد استخدام الأنماط القديمة مرة أخرى.

وهكذا يمكننا أن نُدَوِّن في سجلنا ما يلي :

إن عملية التكاثر يمكن أن تتم بنجاح بدون جنس، والرجال ليسوا مطلوبين بالضرورة من أجل إتمام التبادل الجنسي. لكن إن صعب الأمر لنقص الطعام أو لتغير العالم الذي تحيا به الكائنات بصورة أسرع من المعتاد، أو لوجود أخطار محدقة أو أعداء متربصين، فلا يمكن الاستمرار إلا في حالة وجود ذكور لإتمام عملية التكاثر الجنسي.

ورغم كل ذلك : لو لم يكن هناك رجال لوجب اختراعهم

إنه لأمر عجيب : إننا نعتقد هنا أن وجود جنسين من البشر لممارسة الجنس وإنتاج الذرية، هو أمر مُسَلَّم به تماماً. فهل هناك سبب آخر يجعل غالبية ذكور الحيوانات ونحن أنفسنا، نبذل كل هذا الجهد والمشقة من أجل اجتذاب أنثى واحدة أو عدة إناث حرصاً على وجود ذرية جديدة ونقل صفاتنا الوراثية إليهم؟ إن ممثلي الجنس الذكري في الحقيقة يقدمون على أي مخاطرة ، بل يصبحون مستعدين للمغامرة بحياتهم أو جعل أنفسهم أضحوكة بسبب سلوكهم الغزلي المبهم، إن كان ذلك من شأنه الفوز بأنثى جذابة. ونجد نسبة الهورمونات الجنسية، وكذلك أنماط شبكات الربط العصبية المسئولة عن توجيه سلوك التزاوج، مهيئة تماماً عند الجنسين بحيث تسمح لهما، إن حدث ذلك، بإتمام عملية الإنجاب. ويبدو أن الرجال والنساء مخلوقون بما يناسب إتمام عملية التكاثر هذه.

ثم نكتشف بعد ذلك أن الجنس يمكن أن يكون ناجحاً بدون رجال، ولا حاجة إليهم دائماً في عملية التكاثر. لكن هناك تناقضاً بين هاتين الفكرتين يجعلنا نشك في وجود خطأ ما بالأمر.

ويبدو أننا يمكن أن نقارن هذا الوضع بموقف أينشتاين، عندما لاحت له فكرة أن التصورات القديمة لقوانين نيوتن الفيزيائية كانت مناسبة لتفسير الظواهر الفيزيائية اليومية - هنا على كوكب الأرض فقط . و انقشعت فجأة الغمامة من أمام عينيه، ليرى أن نيوتن وضع المعادلات الفيزيائية لوصف ما يمكن للجميع مراقبته هنا على كوكب الأرض. لكن بمجرد فتح النافذة والبدء في اختراق المجالات المرئية والكونية والمجهرية وتحت مستوى الذرة، لم يعد هناك شيء صحيح. هنا اتضح أن ما كان يُعَدّ من البديهيات أصبح حالة استثنائية لا تحدث إلا تحت ظروف شديدة الخصوصية.

وما هو الحال لو انطبق الشيء نفسه على تصوراتنا ونظرياتنا الحالية عن الجنس والتكاثر ودور الجنس الذكري بالنسبة لنظرية التطور الحيوية ؟

وقد يكون الهدف من وجود الرجال، من نظرتنا السطحية للأمور، هو نقل جيناتهم الوراثية بفاعلية إلى الأجيال القادمة بواسطة إنجاب أكبر عدد ممكن من الأبناء القادرين على الإنجاب. وقد يتوارى خلف كل أنماط السلوك والاستراتيجيات التي يمارسها الرجال والتي يبدو أنها منصبة على الجنس والقدرة على الإنجاب والتكاثر، قواعد مختلفة تماماً وأكثر أهمية بالنسبة لتطور الكائن الحي، كأن تكون " نظرية نسبية عامة للذكورة ". ويمكننا أن نبدأ في محاولة اكتشاف ذلك.

لذا يفضل أن أبدأ مرة أخرى من أسفل سلم الكائنات، هناك حيث لا يوجد ذكور حقيقيون ، وذلك عند كائنات البراميسيوم. وسعيهم الذي نراه في كوب الماء ليس سوى الحل الذي نجحوا في الوصول إليه للخروج من المأزق الذي تواجهه جميع الكائنات الحية: فجميع العضويات، سواء البسيطة أو الأكثر تعقيداً، لا تستطيع البقاء على قيد الحياة أو إنجاب النسل القادر على الحياة إلا مع النجاح في ضمان البقاء على ما هم عليه. ولتحقيق ذلك يجب عليهم الحفاظ على كل ما قاموا بتطويره من البرامج الجينية والشروط والأطر العامة اللازمة لتطوير هذه الإمكانيات الوراثية. وقد أسهم كل ذلك حتى الآن في ضمان البقاء على قيد الحياة. وفي الوقت نفسه يجب عليهم التغير والسماح بحدوث تعديلات لمواصفاتهم الجينية وللأطر اللازمة لتطوير تلك الصفات، أو خلق أطر جديدة بفاعلية لكي يستطيعوا البقاء على قيد الحياة في عالم دائم التغير والتبدل، وإلا فلن يمكن لهم التكيف مع محيط حيوي جديد أو أي نوع آخر من أنواع التطور. إن الحياة أو بمعنى آخر نمط الحياة المعني كان سيتوقف - وبمجرد تغير ظروف الحياة السائدة حالياً - وسينقرض. وكما رأينا في حالة كائنات البراميسيوم، لم يعد هناك مفر من تغيير ظروف الحياة تلك. مبدئياً تحدث مثل هذه التغيرات بواسطة

أنماط الحياة ذاتها - بواسطة نشاطها الذاتي، عبر النمو والتكاثر. ويضاف إلى ذلك أنماط حياة أخرى تريد الحياة كذلك وتحتاج إلى مصادر للتغذية ومحيطات حيوية مشابهة؛ حيث إنها تنمو وتتكاثر أيضاً.

فكل الكائنات الحية تجد نفسها أمام المأزق نفسه: أنها يجب أن تجد طريقاً يسمح لها بالبقاء على نفس الشكل لكي تبقى على قيد الحياة، مما يسمح من ناحية أخرى بأن تتغير وأن تتكيف مع الظروف الجديدة وأن تستمر في التطور. ويمكننا مشاهدة الحل الأوَّلي والأسهل لهذا المأزق في جميع أنماط الحياة التي تقوم فيها الكائنات متعددة الخلية بما اخترعته الكائنات وحيدة الخلية: القيام بخلق نسخ مماثلة لأنفسهم عن طريق التوالد الإنباتي ثم إدراج مراحل يقومون فيها من خلال لقاء جنسي بتبادل مواد وراثية بين كائنين مختلفين وإنتاج نسل جديد يكون مختلفاً عنهما قليلاً.

والحل الثاني الأكثر تعقيداً والذي تم إيجاده منذ القدم، يكمن في التحدي القائم بين أفراد من نفس النوع ولكن مختلفين في الجنس. وهي أجناس عديدة عند الفطريات ، لكن غالبية النباتات والحيوانات سلكت طريقاً أدى إلى تكوُّن أفراد إما من نوع الذكور أو الإناث فقط. ويتم تحديد الجنس من الخارج بواسطة ظروف معيشية خارجية معينة أو بشروط معينة لتربية النسل يحددها الآباء، والأمهات على وجه أخص - أو من الداخل عبر تركيبات معينة من صبغيات الجنس. وحتى الحل المنطقي بتجهيز أفراد النوع الواحد بجنسين والتي تقوم بتلقيح بعضها بالتبادل باعتبارها خنثى أو مزدوجة الجنس، قد وجدتها بعض قوالب الحياة خلال عملية التطور للكائن الحي. ويبدو الأمر للوهلة الأولى ذي فائدة حقيقية عندما يحمل كل فرد من كل نوع بداخله كل من الجنس الذكري والأنثوي في الوقت نفسه. وهكذا يمكن أن يكون ممثل كل جنس من كل نوع قادراً نظرياً على عملية التكاثر المحتملة.

لكن هذه المخلوقات المخنثة لا تستطيع أن تقوم بذلك الشيء الذي يسمح به وجود الجنسين ونضوجهما كفردين منفصلين. وهذا يحدث بطريقة ممتازة عندما يؤدي التقسيم المختلف لكروموسومات تحديد الجنس إلى تمايز أفراد النوع الواحد منذ البداية إلى جنسين هما الذكر والأنثى. وهكذا تجد مشكلة البقاء على نفس الحال من ناحية وضرورة التغير الدائم من ناحية أخرى - الحل وبطريقة سهلة للغاية: فمن خلال هذا التمايز إلى جنسين، أصبح من الممكن تحسين صفات الإناث للدرجة التي أصبحن معها قادرات على الحفاظ على وتأمين ما تم التوصل إليه أي من استراتيجيات البقاء والبرامج الجينية اللازمة لها. فالإناث تفرز بويضات كبيرة تحمل - كما هو الحال لدى الطيور - كل ما هو لازم لتطور الجنين، أو أنها تقوم بتأمين وتوجيه تطور الصفات الوراثية اللاقحة[4] داخل الكائن الحي الخاص بها، كما هو الحال لدينا نحن الثدييات. وبنفس القدر الذي نجحت فيه الإناث في حل جانب من المأزق بالحفاظ على ما تم التوصل إليه وثبت صلاحيته ، أمكن تحسين قدرة الذكور بأقصى ما يمكن في البحث عن سُبل وسياسات جديدة تسمح بتطور الموجود لكي يستطيع النسل تطوير قدراته على التطور والتكيف مع ظروف الحياة المتغيرة. وهكذا يصبحون متخصصين في البحث عن حلول للشق الثاني من المأزق.

ويمكن مقارنة هذا الموقف بلاعب كرة القدم: فالإناث يتولين دور القدم الثابتة والذكور يقومون بدور القدم الحرة. لكن اللاعب يحتاج دائماً إلى كلا القدمين لإحراز هدف، أي القدم الثابتة والحرة. ولتطبيق ذلك التشبيه على موضوعنا ، فإن ذلك يعني : لكي يمكن استغلال اختلاف الجنسين للحفاظ على الاستقرار من ناحية والقدرة على التحول والتحور في سياق تاريخ تطور الأنواع ذات الجنسين من ناحية أخرى، يجب لصق كلاهما، أي الرجال والنساء، بواسطة " رباط " قوي حقاً. ونحن نعرف

---

[4] اللاقحة هي الخلية التي تنتج عن عملية الإخصاب أو التلقيح بين خليتين أحاديي الصبغة ليشكلا خلية ثنائية الصبغة.

هذه المادة حق المعرفة، فهي ما يُطلق عليه عند الحيوانات الغريزة الجنسية وما يُسمَّى عندنا بالرغبة الجنسية.

ويمكن تشبيه ما يُحدِثه هذا الرباط عند الرجال وما يسوقهم إليه، وما هي الأشكال التي يتخذها والثمار التي يؤتيها، بمعادلات وقوانين الفيزياء التقليدية التي قدمها نيوتن. أما تفسير ضرورة وجود الرجل وما يتوارى خلف هذا الاتحاد الواضح للأجناس يشبه ما يمكن أن نطلق عليه " نظرية النسبية العامة للجنس ". فهي لا تقوم فقط بتفسير ظاهرة الرغبة الجنسية بكل أشكالها وتأثيراتها؛ بل تشرح القوة الخفية غير المرئية التي تكمن خلف هذه الظاهرة المرئية والتي أدت إلى نشأة وتكوُّن هذين الجنسين. فهذه القاعدة جعلت من الممكن استنباط مدلول وأهمية الجنس الذكري بالنسبة لتطور الجنس البشري: تجربة كل ما هو ممكن بأي شكل. وهو يعني الاستفادة من القدرات الوراثية الفردية أو جزء معين من هذه القدرات إلى أقصى درجة، لتكوين الأشكال الجسدية والأطراف الجسمانية والقدرات الفكرية والسلوكيات وغيرها من السمات الخاصة المدهشة - ودفع كل هذا إلى أقصى حد ممكن بحيث لا يحل الرباط هذا الاتحاد بل يوثقه؛ أي أنه يزيد من الجاذبية الجنسية بالنسبة للإناث وتحسين فرص البقاء وفرص التكاثر بالنسبة للذرية.

ولهذا السبب تم اختراع الرجال. وهذا هو سبب وجودهم. هذا هو الهدف البيولوجي من وراء وجودهم. كل ذكور الحيوانات يتبعون هذا القدر. لذا تنوء بعض الذكور تحت قرون هائلة معيقة لها ، وبعضها الآخر لها ملحقات جسدية متناهية في الكبر لدرجة تكاد تمنعها من تناول الطعام أو الركض. بعضها لها ذيول تعرقلها كثيراً أثناء الطيران، وبعضها يتسم بالألوان المزركشة مما يجعلها ملفتة للنظر ومعرضة دائماً لخطر وقوعها فريسة للحيوانات المتوحشة ، وبعضها يسمح لأنثاه بأكله بعد نجاح عملية التزاوج مباشرة.

ولا يختلف هذا الحال سوى لدينا نحن معشر الرجال. لكن قد تكون هذه الأشياء الكثيرة قد تغيرت في الفترة الأخيرة فقط. لقد كانت هناك فترة زمنية طويلة بعض الشيء، لم تكن النساء تهتم فيها بالشكل الخارجي، أي بصفات جسدية منفردة. وهذا من حسن حظنا، وإلا لكان يمكن لنا اليوم أن نتجول حاملين لذيول أو شعور هائلة أو معلقات أو أطراف معيقة.

ويبدو أن ما جعل الرجال حتى الآن محط جاذبية للنساء هو شيء آخر غير لافت للنظر من الوهلة الأولى ، لكن ما تقدره النساء في جميع العصور وكل الثقافات والحضارات في الرجال هو وضعهم الاجتماعي في المجتمع الذي يعيشون به إلى جانب قدرتهم على العمل على تطوير أبنائهم على أفضل وجه؛ بمعنى أنهم يستطيعون تطوير صفاتهم الوراثية بأفضل صورة ممكنة.

لذا ننحدر كلنا من رجال نجحوا بطريقة ما في اكتساب الاحترام والأهمية داخل الجماعة التي يعيشون فيها، سواء كصيادين أو مزارعين أو حرفيين أو تجار أو مكتشفين أو علماء أو فنانين ناجحين و - للأسف أيضاً - كمحاربين ومحتالين ولصوص وسفلحين. المهم أن يكونوا ناجحين، لكن بأي طريقة، هذا ما لم يكن يهم هؤلاء الرجال مادام يسهم في رفع جاذبيتهم بالنسبة للنساء اللاتي يرغبن فيهن.

وفي حال فشل ذلك، سلك الرجال الطريق الآخر بالسيطرة على المرأة. صحيح أن ذلك لم يكن متفقاً مع قدرهم البيولوجي ، لكنه كان ناجحاً أيضاً. لذا نجد من بين أسلافنا قامعي النساء من أمثال المغتصبين والحكام في عصر الحريم من أجدادنا أيضاً. لكن الرجال الأكثر إثارة للاهتمام هم أولئك الذين نجحوا في تحقيق إنجازات خاصة جعلتهم يصلون إلى مكانة عالية وهامة ومرموقة في المجتمع. وأصبحوا بالتأكيد أكثر الرجال الذين ترغب نساء فيهم في ذلك المجتمع. وهكذا وقع الرجال منذ البداية تحت ضغط اختيار جنسي وإن لم يكن موجهاً إلى تكوين صفات جسمانية مميزة أو سلوك معين بقدر ما كان لنيل المكانة والاستحسان والتقدير الاجتماعي.

و هكذا كان لكل مجتمع حسب درجة تقدمه وظروف حياته - تصوراته ومقتنعاته التي تقدم الإطار الذي يستطيع الشباب اليافع من خلاله نيل المكانة والاستحسان والتقدير. وتلك القناعات المتفق عليها في المجتمع حددت الاتجاه الذي يجب على الرجال السير فيه لتطوير قدراتهم الجسدية والفكرية. وكل هؤلاء الرجال الذين نجحوا في تطوير قدراتهم في هذا الاتجاه بالضبط وبأقصى درجة ممكنة، كانوا بلا شك أصحاب أفضل فرص للإنجاب ونجحوا في نقل كل صفاتهم الوراثية الخاصة وكذلك قدراتهم ومعارفهم الخاصة المكتسبة بالإضافة إلى الممتلكات المادية والعينية التي حصلوا عليها بواسطة تلك الجهود الخاصة -- إلى ذريتهم.

هل تعرفون ما هو معنى ذلك ؟ لقد تحدد تطور أسلافنا في اتجاه معين ! ولم يُحدد الرجال الاتجاه الذي يسير فيه هذا التطور ، لكنهم عملوا مرة تلو الأخرى مثل الجرّار على تحرك قطار التطور في المجتمعات الإنسانية بسرعة إلى الأمام على هذه القضبان التي تم إنشاؤها. وقد كانت هذه القضبان، حتى الآن ولفترات زمنية أطول من تاريخ تطورنا، موجهة إلى تحقيق النجاح القصير الأجل - موجهة إلى اكتساب السلطة والنفوذ والسرقة والاحتيال والاعتداء والحروب. ثم بدأت الأمور تسير بسرعة متزايدة - لفترة معينة على كل حال -- حتى شارف هذا القطار على الخروج عن القضبان.

وبعد أن حان وقت إعادة بناء العالم المدمر، حقق هؤلاء الرجال النجاح وأصبحوا محط جاذبية النساء بعدما نجحوا في تطوير تلك القدرات الخاصة بدرجة كبيرة؛ مما جعلهم قادرين على تطوير صفات مميزة مثل الحيطة والعطف والتضافر وتحمل المسئولية والقدرة على التفكير وضبط النفس؛ بحيث استطاعوا بصفتهم القادة الفكريين والروحانيين - الشروع في تصحيح اتجاه التطور الحالي لمجتمعهم ونجحوا في اكتساب المكانة المرموقة والاحترام والتقدير.

وهكذا عمل الرجال، مرة تلو الأخرى، على تعديل الاتجاه الذي يسير فيه قطار التطور الاجتماعي الثقافي للجماعات الإنسانية: وذلك بالابتعاد عن المبالغة في تقدير أهمية بعض القدرات الخاصة وبعض أهداف التطوير الخاصة وتهيئة الظروف التي تسمح بتطوير وانطلاق القدرات التي يتمتع بها الإنسان بكامل تنوعها ومجالاتها. وكما بدأنا ندرك، فإن ما نتحدث عنه هنا هو إمكانيات وقدرات يولد بها كل البشر، رجالاً ونساءً، في كل مكان وفي جميع الأزمان منذ أن ترى أعينهم نور الحياة.

بحثاً عن الاختلاف :

ما وجه الاختلاف عند الرجال ؟

سيدة تركض مسرعة عبر المتنزه حاملة حقيبتي مشتروات ثقيلة. فقد ظلت طوال اليوم تعمل في المكتب ثم ذهبت لتوها بسرعة للتسوق. هي الآن في طريقها إلى المنزل؛ حيث ينتظر الأبناء قدومها لتجهز لهم طعام العشاء. لا تزال تفكر في قائمة المشتريات متسائلة إن كانت قد نسيت شيئاً. هنا يعترض طريقها فجأة رجل خرج من وراء الشجيرات ويقف مرتدياً معطفاً مفتوحاً عن آخره. إنه عارٍ تماماً تحت المعطف، فهو من الافتضاحيين[5]. تنظر إليه قليلاً ثم تتذكر: نعم ، لقد نسيت الجمبري.

إن ذلك الإنجاز الذي تقوم به هذه السيدة في تلك القصة القصيرة هو إنجاز عقلي رائع بكل المقاييس. وسواء أكان رجلاً أم امرأة، ففي بعض الأحيان نكون منهمكين في أفكارنا لدرجة أننا نضع في مثل هذه اللحظة كل ما يحدث لنا تلقائياً في سياق ما نفكر فيه. وهنا نجد فجأة جمبري أمام أعيننا الذهنية، حتى وإن كان ما نراه في الحقيقة هو شيء آخر تماماً. وبغض النظر عما إن كانت الأفكار التي تدور في أذهاننا هي المشتروات أو أية مشكلة أخرى، أو خبر في جريدة أو أي فكرة أخرى أو تصور آخر - يتم دائماً تفعيل شبكات الربط العصبية في المخ. ولأنه تم تفعيلها في هذه الحالة، فإنه يتم ربط جميع نماذج الإثارة المنتقلة إلى المخ عبر القنوات الحسية بسهولة كبيرة بنماذج التصور والتي سبق استثارتها. وهكذا لا نرى أو نسمع أو نحس بما يحدث، بل ما يناسب ما يشغل بالنا الآن بشدة. وفي الحالات المتطرفة، لا نرى إلا ما نرغب في رؤيته.

---

[5] من الانحرافات الجنسية؛ حيث يسير المرء عارياً مما يحقق له اللذة الجنسية (المترجمة).

ويحدث هذا للنساء كما يحدث للرجال على حد سواء، ويعد حدوثه أمراً جيداً. فلو أننا أدركنا كل شيء وفكرنا في كل ما تستقبله الحواس من إثارة وانفعالات وانتقلت إلى المخ، فإن رأسنا سوف ينفجر خلال فترة زمنية قصيرة. لذا نحصر إدراكنا على ما يبدو لنا مهماً بطريقة ما في هذه اللحظة بالذات. ولقيام الأفراد داخل دائرة ثقافية معينة بتبادل معارفهم وقراءة الجرائد ومتابعة الأخبار، فإنهم يتقاسمون أيضاً التصورات والقناعات المشتركة السائدة في هذا المجتمع. ويشتركون في اعتبار بعضها على جانب عظيم من الأهمية وبعضها الآخر أقل من ذلك حتى وإن كان ذلك مختلفاً في بعض الثقافات الأخرى أو كانت تحظى بنظرة مختلفة تماماً منذ عدة أجيال مضت. وينطبق ذلك على جميع مناحي الحياة بدءاً بما هو " عصري " في ذلك الوقت وقضايا تُثار بشدة في ذلك المجتمع، ومروراً بالمسائل الجوهرية مثل دور الأسرة ومهمة المدرسة وحماية البيئة والمناخ، ووصولاً إلى وجه الاختلاف بين الرجال والنساء. وكثيراً ما لا نرى في هذه الحالة ما هو موجود بالفعل، بل ذلك الذي يتفق مع التصورات والقناعات والتي يشترك فيها في وقتنا هذا الأفراد من وسطنا الثقافي.

وقد يكون الأمر مختلفاً في أماكن أخرى. لكن في وسطنا الثقافي بوجه خاص، نعاني - منذ بعض الوقت - من صعوبات أكبر في الفصل بين المظهر الرجولي والسلوك الرجولي والمظهر الأنثوي والسلوك الأنثوي. فقد تم تعكير نظرتنا إلى هذه الاختلافات بشكل ما. ومن السهل معرفة لماذا ، فقد اهتممنا بتحقيق المساواة ، وكافحت النساء من أجل ذلك. لكن وبعد مرور كل تلك القرون من سيطرة الرجل، لم يمكن التغلب على التمييز ضد النساء في العديد من المجالات.. للأسف. لكن لا يمكن المطالبة بعدالة توزيع الفرص إلا عند افتراض وجود نفس المؤهلات عند كلٍّ من الرجال والنساء؛ أي عندما تكون الاختلافات بين الجنسين ليست كبيرة إلى حد كبير. لذا يصعب علينا قبول هذه الاختلافات.

وهناك سبب آخر أكثر دقة: لو كنا على استعداد للاعتراف بأن الرجال والنساء ما هم سوى مخلوقات مختلفة كثيراً، لوجب علينا العمل على إيجاد الفرص التي تسمح لكل من الصبيان والفتيات بالنشأة بما يتفق مع اختلافهم في النوع، والعيش سوياً بإكمال كل منهما للآخر لاحقاً، بعد أن يصبحوا رجالاً ونساءً. ولوضع هذه الفكرة موضع التنفيذ، تنقصنا في ثقافتنا النماذج المناسبة لها ولا مكان لها في تصوراتنا. وهكذا نفضل ادعاء عدم وجود هذه الاختلافات بين الجنسين.

والسبب الثالث هو سبب تجاري: فمن ينتج بضائع أو منتجات - وتُعد وسائل الإعلام منها أيضاً - يجب أن يقدمها وأن يعرضها على عدد كبير من العملاء. وكل ما تم إنتاجه خصيصاً للرجال أو النساء فقط لا يصل إلا لنصف الطاقة الشرائية لهذا المنتج. لكن من يريد الوصول إلى الجميع يجب عليه بالضرورة إنتاج ما يعجب الكل. وهذا لا يصبح ممكناً بالطبع إن كانت الاختلافات بين الرجال والنساء كبيرة؛ لذا يتم العمل على إزالة الفروق بينهما كلما تسنى ذلك. وأفضل وسيلة لتحقيق النجاح هنا هي الأمثلة المخنثة التي يتم تقديمها لنا في كل مكان في شكل نجوم الغناء وعارضي الأزياء المحايدي الجنس.

وبالنظر إلى السمات السابقة التحديد الموجودة حالياً في وسطنا الثقافي، فإنه من الطبيعي أن نكون قد فقدنا النظر قليلاً فيما يتعلق بالفرق الفعلي بين الرجال والنساء.

الرجال لديهم طبيعة وراثية مختلفة

ولا نستطيع غلق أعيننا أمام هذه الحقيقة - مهما حاولنا: فالرجال يبدأون حياتهم منذ الوهلة الأولى بتجهيزات وراثية مختلفة؛ حيث ينقصهم ثاني من نوع إكس. لكن لديهم في هذ المقابل الصبغي واي. وهذه المعلومات الوراثية الموجودة لدينا في هذه النسخة المتناهية الصغر من مجموعة الصبغيات على شكل سلسلة متوالية من الحمض النووي ، هي التي تضع أسس نشأة جنين ذكري في البويضة الملقحة.

وقد نجح العلماء حتى الآن في التعرف إلى عشرين مورث في الصبغي واي ، وهو عدد قليل إذا ما قورن بآلاف المورثات التي وجدت في الصبغيات الخمس وأربعين الأخرى الموجودة لدى الإنسان. وتسع من مجموعات المورثات هذه هي ما يطلق عليه " جينات الخدمة " أو جينات التدبير المنزلي، ويتم تشغيلها في العديد من أنسجة الجسم وهي التي تقوم بتنظيم وظائف أساسية في عملية الاستقلاب. أما الإحدى عشرة الأخرى فهي لا تكون نشطة إلا في الخصية وتقوم بعملة تنظيم تغذية الحيوانات المنوية. أما خلايا ليدِج التي تنشأ بين القنوات الصغيرة المتعرجة في الخصيتين، فتقوم بإنتاج هورمون الذكورة " تستوستيرون " الذي يدخل في جهاز الدوران المعروف باسم الجهاز القلبي الوعائي.

وكان هذا هو الموضوع تقريباً، فهذا التستوستيرون هو المسئول عن البقية الباقية. فهو المسئول عن جميع الخصائص الجسمانية الذكرية، بدءاً من بناء الهيكل العظمي الذكري حتى السمات المميزة لشبكات الربط العصبية - في المخ الذكري - فمن يرى أن الجينات هي المسئولة عن جميع ما يحدد الفروق بين الرجال والنساء، يمكنه أن يقدم كروموسوم واي الهزيل بمورثاته العشرين كتبرير لذلك. أما بقية النحو ثلاثين ألف مورثة لدى الإنسان فهي متماثلة عند الرجال والنساء. فلا يوجد مورث مسئول وحده عن اختلاف الشكل الخارجي للرجال

وتفكيرهم وشعورهم وسلوكهم المختلف تماماً في كثير من الأحيان عن النساء. وجميع الجينات المسئولة عن تكوين صفاتنا الجسمانية وتركيباتنا الدماغية وتشابك الخلايا العصبية، موجودة في الصبغيات الخمس والأربعين الأخرى. صحيح أن هناك اختلافات فردية بها، لكن باستثناء وجود كروموسوم واي ونقص كروموسوم إكس الثاني؛ فإن التركيب الجيني واحد بين الرجال والنساء. لكن ذلك الاختلاف الصغير في توزيع هرمونات الجنس بين الاثنين، وكما سنرى الآن، له تبعات خطيرة على ما ينتج عن البويضة المخصبة.

في البداية يمكننا أن نُدَوِّن في سجلنا بخط عريض ما يلي :
الفرق الوراثي الوحيد بين الرجال والنساء يكمن في أن الرجال يبدأون الحياة بوجود الصبغي واى وبدون الصبغي إكس .

الرجال لهم جسم مختلف

يزيد طول الرجال في المتوسط بعشرة سنتيمترات عن طول النساء. ويتميزون بجهاز عضلي أكبر وزيادة في حجم أطرافهم بما في ذلك كفوف اليد والأقدام. لذا يرتدون الأحذية الأكبر - في المتوسط بالطبع. لكن عند النظر إلى الأمر بدقة أكبر يتضح لنا شيء آخر لا يظهر من خلال هذه القيم المتوسطة، وهو أن منحنى التوزيع لدى الرجال أكثر تطرفاً مما هو الحال عند النساء. فهناك الكثير من الرجال طويلي القامة، لكن يوجد أيضاً رجال كثيرون قصيري القامة. فالبناء الجسماني للرجال أكثر ميلاً للطفرات الكبيرة. الرجال إذن هم الجنس الأكثر تطرفاً وليس الجنس الأقوى، لذا يموتون في المتوسط في عمر أصغر من النساء. وفي الوقت الحالي يقل متوسط العمر المتوقع عند الأطفال حديثي الولادة من الذكور عن الإناث بنحو ست سنوات. وهم الذين يتعرضون لحوادث أكثر وهم صبية صغار ويعانون من إدمان المخدرات بدرجة أكبر وهم في سن المراهقة، وتزيد إصابتهم بالصلع عند تقدمهم في السن، ويعانون أكثر من أمراض الضعف الجنسي والجلطات الدماغية. وكل هذا مرتبط بطريقة ما بأسلوب حياتهم وهرموناتهم المختلفة. وسوف نقوم لاحقاً بمراقبة ذلك بالتفصيل في موضع آخر.

وأهم نقاط الاختلاف بين الرجال والنساء، تكمن في الأعضاء التناسلية والصفات الجنسية الثانوية. لكن نمو الأعضاء التناسلية الذكرية يتعلق بدرجة كبيرة بمدى كفاية هرمون التستوستيرون الذي تفرزه خلايا ليدِج بالخصيتين ودخولها في الدم. فإن حدث اضطراب في ذلك خلال فترة نمو الجنين لسبب أو لآخر، تنشأ مخلوقات مخنثة ذات أعضاء تناسلية ذكرية أو أنثوية أقل وضوحاً. وعند توقف إفراز هرمون التستوستيرون عند الرجل فيما بعد - لأنه تم إخصاؤه باعتباره خادماً في الحرملك - تختفي أيضاً الصفات الجنسية الثانوية التي يتسبب

فيها إفراز التستوستيرون مثل نمو شعر الذقن ورائحة الجسد الذكرية وبناء الجسم الذكري وتوزيع الدهون - وكذلك ما يميز سلوك الرجال.

وهكذا لا يبقى لنا سوى شيء واحد لكي ندوّنه في سجلنا :

صحيح أن الرجال لديهم جسم مختلف عن جسم المرأة ، لكن هذه الخصائص الذكرية المعينة يعود الفضل فيها في المقام الأول لوجود الخصيتين التي تقوم بإفراز هرمون التستوستيرون .

الرجال لهم عقل مختلف

إن التفسير الأكثر انتشاراً حول الاختلافات بين النساء والرجال لا يزال يقدمه حتى الآن علم الأحياء التطوري. وأن الرجال لا يسألون عن الطريق ولا يتحدثون عن المشاعر وأنهم أكثر قدرة على ركن السيارة من الخلف وأنهم يستطيعون التفكير بطريقة منطقية وأنهم أكثر شراسة وأقل قدرة على إقامة العلاقات وأكثر تحمساً للرياضة، يتم تفسيره بميراثهم الجيني منذ العصر الحجري. فهم يملكون عقلاً مختلفاً وتم برمجتهم بأسلوب مختلف. وهذا تكرار وحشو مبالغ فيه بقدر كبير ولا يفسر شيئاً. فالصبغي Y لا يذكر شيئاً عن كيفية بناء المخ الذكري والصبغيات الخمس والأربعين الأخرى لا فرق فيها بين النساء والرجال، كما ذكرنا. فالإرث الجيني من العصر الحجري لا يمكن تحميله مسئولية زيادة تواجد الرجال في المناصب الإدارية العليا والدخول إلى السجن، وقلة فهمهم للغة وزيادة تصوراتهم للمكان في المتوسط عن النساء . وكذلك أن الرجال أقل معاناة وتعرضاً للذعر والفزع والإصابة بالاكتئاب مقارنة بالنساء بنسبة تصل إلى النصف، وأنه قلما تظهر لديهم اضطرابات ما بعد الصدمات أو اضطرابات الأكل، لكن يعاني ضعف العدد منهم من إدمان المخدرات أو الكحوليات، وأربعة أضعاف العدد مقارنة بالنساء من اضطرابات الشخصية المعادية للمجتمع، وكل هذا لم يعد يمكن تفسيره بالإشارة إلى صفاتهم الوراثية الخاصة وحدها.

وكل ما يمكن استنباطه من جميع تلك الملاحظات هو أمر بسيط يكاد يكون تافهاً: أن الرجال يفكرون ويشعرون ويتصرفون بطريقة تختلف عن النساء. ولهذا: بالرغم من أنهم لا يمتلكون جينات مختلفة عن النساء مسئولة عن تطور المخ، فإن لهم عقل مختلف. هذا صحيح ! فأدمغة الرجال تختلف في المتوسط بالفعل عن أدمغة النساء في كل من التكوين وكذلك بعض الوظائف. فمخ الرجل أكبر في المتوسط من مخ

المرأة - إلا أن قشرة المخ عند النساء بها عدد أكبر من المجار والوصلات بين جزئي المخ. وقد تمكن العلماء في السنوات الأخيرة من إثبات وجود اختلافات متعددة في طريقة عمل المخ البشري لكل من الرجل والمرأة من خلال أساليب مصورة مثل التصوير بالرنين المغناطيسي.

وقد ثبت، على سبيل المثال، أن عمليات التفعيل المتعلقة بإصدار وفهم اللغة تتركز عند الرجل بدرجة أكبر على الجانب الأيسر من المخ. كما أن هناك مساحات بالجزء الأمامي من مخ الرجل، وعلى وجه الأخص قشرة المخ الدائرية الأمامية، أقل تكويناً. لذا يبدو أنه يصعب على الرجال، مقارنة بالنساء، السيطرة على الموجات الآتية من الجهاز الحوفي الانفعالي عبر العمليات التي يتم التعامل معها في قشرة المخ الدائرية الأمامية. ويبدو من الناحية العامة أن الرجال لديهم القدرة على بناء نماذج إثارة أقل تعقيداً من تلك التي لدى النساء في مختلف مناطق قشرة المخ، ويمكنهم ربطها ببعضها البعض؛ مثل عمليات التحليل البصري وغيره من الإدخالات الحسية. فالرجال يستطيعون التعرف على شيء معقد بطريقة أسرع. ولأنهم يقومون بكبت التحليل المتعلق لهذه الخصائص الأقل أهمية، يظل نموذج الإثارة المتكون في المخ لديهم أقل تعقيداً. لذا لا يمكننا تجاهل أن أدمغة الرجال تختلف في بنائها والقيام بوظائفها عن أدمغة النساء.

لكن الأدمغة، وبالأخص في الجنس البشري، هي لدنة بدرجة هائلة وطيعة بدرجة أكبر كثيراً مما كان يتصوره الباحثون في المخ قبل بضع سنوات؛ وخاصة في بداية تكون المخ وتطوره. فالمخ يتفاعل مع الإشارات الهرمونية عندما يكون الإنسان جنيناً في بطن أمه ، ليس من الهرمونات الصادرة من الأم فحسب، بل الصادرة من جسمه هو أيضاً ثم يقوم بضبط نموه حسب هذه الهرمونات. وسيظل طوال حياته يتفاعل ويتجاوب مع الإشارات القادمة من داخله والإثارات الآتية من الخارج. والمخ يتعلم الجديد كل يوم حتى الشيخوخة. فالمخ يسهم في قدرة

الإنسان على التآلف مع الكثير من الأشياء في هذا العالم المعقد وذلك بتقديمه العديد من أنماط ردود الفعل الآلية. وهذه الأنماط الآلية تبدأ من القدرات الحركية مثل السير وإلقاء الأشياء والقفز عبر أعمال الحياة اليومية مثل قيادة السيارة أو التوقيع الخاص، ووصولاً إلى النماذج النفسية البيولوجية والاجتماعية المعقدة، مثل ظهور رئيس متسلط في العمل. فالمخ يتذكر الأنماط المتكررة الحدوث ثم يقوم بالتكيف معها عن طريق شبكات جديدة مناسبة - سواء كان ذلك أثناء عزف الموسيقى أو ركوب الدراجة أو الضغط على أزرار الهاتف المحمول أو ردود الفعل الفائقة السرعة على عصا الكمبيوتر " الجوي ستيك " خلال ألعاب إطلاق النار في الشاشات.

إن مخنا يقوم بتكوين شبكات داخله ويفكر ويعمل بالطريقة التي نستخدمه بها، وتتكون الشبكات بسرعة خاصة وتتصل ببعضها بشدة عندما يكون الشيء الذي يشغلنا كثيراً يحظى باهتمامنا - عندما يؤثر فينا تأثيراً عميقاً أو يثير حماسنا أو انفعالنا أو بأي طريقة أخرى بتفعيل مراكز الشعور في الأجزاء الأكثر عمقاً من المخ.

وبالنظر إلى هذه المعرفة التي اكتسبناها، فإن كل هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يعتقدون حتى الآن أن الصفات الخاصة من ناحية البناء والوظيفة التي ثبت وجودها في مخ الرجل هي المسئولة عن سلوكيات محددة خاصة بالرجل، يعانون من مشكلة الآن. فمن يريد الاستمرار في ذلك الادعاء يجب أن يقدم الدليل على أن هذه الاختلافات العصبية البيولوجية بين مخ الرجل ومخ الأنثى لم تنشأ نتيجة لظروف التطور المتفاوتة والاستخدام المتباين للبنيات الدقيقة في المخ فحسب.

فالحيوانات الثديية التي يكون حجم قرن آمون[6] لديها أكبر بوضوح من الحجم المتوسط لديها بشكل عام قدرة أكبر على تحديد المكان وهذا ينطبق على فئران التجارب وكذلك على الإنسان. والتشكيل الفردي لوظائف المخ الأمامي المشتركة في التحكم في الدوافع، مرتبط - بلا ريب - بدرجة التشابك وكذلك بحجم قشرة المخ الأمامية. لكن السبب الحقيقي لوجود هذه المقدرة الأفضل على تحديد الاتجاهات أو نقص في التحكم في الدوافع، ليس هو قرن آمون الأكبر حجماً أو المخ الأمامي الأصغر حجماً، بل هو الأسباب التي أدت إلى تكوُن قرن آمون بشكل ممتاز عند البعض أو ضعف المخ الأمامي بشدة عند البعض الآخر.

والتفرقة غير الدقيقة بين أسباب معينة ونتائجها، لها إشكالياتها لتفسير الفروق البيولوجية بين الرجال والنساء؛ لأن النتائج المعنية يمكن أن تصير بدورها أسباباً لقدرات التكيف على مستويات أخرى. وتُعتبر الاختلافات في مخ الرجال والنساء مثالاً واضحاً للعلاقة التبادلية الوثيقة بين الأسباب والنتائج. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لما يحصل الرجال على مخ لا يستطيعون معه الإنصات جيداً، في حين يعتقدون أنهم أفضل في ركن العربية بالخلف من النساء.

وهنا لا يبقى لنا سوى تدوين الملاحظة التالية في سجلنا :

للرجال مخ مختلف عن مخ النساء ، لكن لا توجد جينات خاصة بالرجال مسئولة عن البناء المختلف لمخ الرجال .

---

[6] قرن آمون هو الجزء الرئيسي المسئول عن تكوين الذكريات الخاصة بالأحداث والربط بينها وبين سياقها، وهو يرسل المستقبلات التي تمكنه من الاستجابة لهرمونات الإجهاد في الدم (المترجمة).

بحثاً عن الأسباب :

لماذا يصير الرجال على ما هم عليه ؟

إذن هذا هو الحال : الرجال يفكرون ويشعرون ويتصرفون بأسلوب مختلف عن النساء - هذا في المتوسط. فالرجل المتوسط يستطيع أن يُنظم بطريقة أفضل، وهو أكثر اهتماماً بمعرفة كيفية عمل الأشياء. وفي المقابل تنقصه القدرة على التعاطف مع الآخرين. وكذلك القدرات الحركية الدقيقة، فهي أقل تطوراً عند أغلبية الرجال، وإن كانوا يستطيعون إصابة الهدف بدقة أكبر ومعرفة الاتجاهات بأسلوب أفضل. داخل المجموعات يميل الرجال إلى السلوك التنافسي وتكوين درجات للهيمنة. وقدرتهم على التواصل اللفظي لسوأ من النساء، وقلما ينظرون في عينَيْ مُحدِّثهم. والرجال في المتوسط أكثر انفتاحاً من النساء، كما أنهم أكثر عرضة للاضطرابات النفسية غير الانطوائية، ويُقال إن الرجال لهم خيال أكثر قذارة في الأغلب، وأنهم أفضل فهماً للأمور التقنية. ويتكرر حصولهم على جائزة نوبل، وتحولهم إلى مجرمين أو مدمني مخدرات.

بالطبع لا يزيد كل هذا على كونه إحصاءات، وقد لا ينطبق بعضه سوى على الرجال في ثقافتنا. ومن الممكن أن بعض هذه الصفات الخاصة قد كانت أكثر أو أقل ظهوراً في الماضي. كما لا يسعنا إلا توقع الفروق الموجودة اليوم، التي يمكن قياسها بين الرجال والنساء، وما قد يستمر أو يقل في المستقبل.

لكن حتى لو كانت بعض هذه الفروق التي أمكن قياسها، غير صحيحة أو لا يمكن ملاحظتها إلا في محيطنا الثقافي ، وقد يختفي بعضها تماماً في غضون خمسين عاماً، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف نشأت تلك الاختلافات. ما الذي يجعل الرجال مختلفين عن النساء إذن ؟ السبب في ذلك هو أن لديهم بالطبع عقل مختلف، لذا يفكرون ويشعرون

ويتفاعلون أيضاً بطريقة مختلفة. لكن لماذا يتطور ويتكون عقلهم بأسلوب مختلف عن النساء؟

وقد كانت هناك حتى الآن إجابتين مختلفتين عن هذا السؤال: فقد قال البعض " إن هناك برامج وراثية تُشكِّل النضوج المختلف لعقل الرجل." أما البعض الآخر فقد قال: " لأنه قد تم تربية الفتية منذ صغرهم، سواء عن قصد أو بدون قصد، بأساليب التفكير والإحساس والسلوك النمطية بالنسبة للرجال." ومن كان يعتقد من هذين التيارين أن برامج المورثات هي الفيصل هنا، ينبغي أن يعتبر التربية والتنشئة الاجتماعية ذات تأثير ثانوي على تطور المخ. أما من كان مقتنعاً أن التميز الثقافي القائم على تنوع نمط الجنس هو المسئول الرئيسي عن تشكيل أسلوب التفكير والإحساس والسلوك النموذجي للرجال، فإنه قد ابتعد عن فكرة البرامج الوراثية للرجال وعقلهم ذي التوجيه المختلف.

وتُعبّر وجهتي النظر المتناقضتين حول أسباب اختلاف تفكير وسلوك الجنس الذكري والأنثوي، عن الجدال في علم تحسين النسل الذي كان قائماً وبشدة في القرن الماضي في العالم الغربي وفي جميع المجالات؛ حيث أرجع البعض السبب في الاختلافات القائمة بين البشر إلى الصفات الوراثية ، بينما رأى الآخرون أن السبب الرئيسي هو البيئة المحيطة. بيد أن ذلك الصدع الذي حدث بينهما لم يتم رأبه تماماً حتى الآن. وإن كانت أسس الجبهتين الرئيسيتين وتصورات ونظريات وقناعات أنصار هذين التيارين، قد ضعفت وانهارت بقدر كبير خلال الأعوام الماضية. وهكذا تبين لا معقولية الحتمية الوراثية بفضل النجاح في فك الشفرة والوصول إلى تسلسل الإرث الجيني. وقد ثبت أن الجينوم البشري المتفق بنسبة ثمان وتسعين بالمئة (98 %) مع تسلسل الصبغة الوراثية، بأننا أكثر تماثلاً مع أقاربنا الأقربين وهم القردة العليا، مما كنا نعتقده حتى الآن. فبالنظر إلى الثلاثين ألف مورثة الموجودة في الجنس البشري نملك نفس العدد الموجود عند الديدان تقريباً. والجدير بالملاحظة أنه منذ وجود الجنس البشري؛ أي منذ ما لا

يقل عن مئة ألف عام، لم يتغير شيء على الإطلاق حتى الآن في الإرث الجيني البشري. وقد كان أسلافنا في العصر الحجري ، بالرغم من عدم قدرتهم على التحدث تقريباً أو معرفتهم بكيفية بناء بيت وجهلهم بكل المعرفة والقدرات التي نحظى بها اليوم، يحملون نفس الصفات الوراثية التي نحملها. فلو افترضنا أننا نجحنا في الحصول على بويضة ملقحة منذ ذلك العصر وقمنا بزرعها في أم بديلة اليوم، فلن يمكننا تحديد وجه للاختلاف بين هذا الطفل المولود والذي سيصبح بالغاً بعد ذلك وبيننا نحن. كان هذا الطفل أو هذه الطفلة سيذهب إلى المدرسة ، وقد يدرس بالجامعة وقد يصبح طبيبا أو عالم طبيعة أو متسول ، وكان - إن كان رجلاً - سيفكر ويشعر ويتصرف الطريقة نفسها مثل الرجال اليوم.

فما حدث من تغير منذ العصر الحجري، وما جعلنا نصبح هؤلاء البشر الذين نحن عليه اليوم، لا يعود إلى الصفات الجينية بداخلنا، فقد كانت بداخلنا منذ ذلك الوقت. لكن ما كان ينقصنا أنذاك هي الظروف المحيطة المناسبة التي سمحت ببناء هذه القدرات وتكوين ذلك المخ البشري الذي نحمله داخل رؤوسنا هذه الأيام، والذي نستخدمه في قيادة السيارة أو الطيران أو الوصول إلى القمر أو الاتصال الهاتفي أو الشات في الإنترنت.

وقد أدت المعرفة التي توصلنا إليها بأن صفاتنا الوراثية هي شرط مهم ولكن غير كاف، إلى تكوين مخ بشري غاية في التعقيد. وقد نجح علماء الوراثة وعلماء الجزيئات الحيوية في تقريب المسافة بدرجة كبيرة في طريق البحث عن سبب الحال التي أصبح الرجال عليها اليوم. صحيح أن البرامج الوراثية تسمح بتكوين مخ قادر على التعلم طوال حياته ، لكن نوع العقل الذي يتكون لدى الرجل (أو المرأة) يتعلق بكيفية ومجالات استخدامه. وهذا متعلق بدوره بالفرصة التي يحصل عليها في هذا العالم الذي ينشأ فيه لكيفية ومجالات استخدام عقله أو كيف يفرض عليه استخدامه. وهذه المعرفة أدت إلى إذابة وانهيار الأساس كله الذي قامت

عليه جميع تصورات أنصار الحتمية الوراثية لتطور العقل البشري والسلوك البشري.

لكن في الجانب الآخر من الخندق؛ حيث أتباع تأثير التربية والنشأة الاجتماعية على عقل الطفل، تغيرت إلى حد بعيد التصورات التي كانت سائدة وأوشكت على الذوبان الآن. ويرجع الفضل في المقام الأول إلى الباحثين في دراسات المخ وفي إيضاحاتهم بأن البيئة المحيطة التي يولد وينشأ بها الأطفال هي طاقات احتمالية لا ينتقون منها كل شيء ، بل يأخذون ما يبدو مهماً فحسب. وأهم ما توصل إليه علماء المخ هي أن الأدمغة البشرية أو بمعنى أصح نماذج ربط الخلايا العصبية للشبكات العصبية ونماذج الربط المشبكية المتكونة هناك، هي مرنة وطيعة وقابلة للتشكيل بقدر أكبر مما كان يعتقد حتى الآن. أو بأسلوب أسهل: المخ يصبح حسبما يتم استخدامه. فالبناء والتنظيم الداخلي للمخ يتكيف بسهولة مع كل ما نعايشه أو نفعله أو نفكر فيه أو نتعلمه بقدر كبير من الشغف.

لذا يصبح المخ بصفة خاصة على الشكل الذي نستخدمه فيه بكثير من الشغف.

والشغف بالشيء يعني أن هناك أمراً " يُحرِّك مشاعرنا " وأن ما نفعله مُمتع ومُشبع لنا. وهذا هو الحال عندما يمثل تفكيرنا أو فعلنا أو إدراكنا أهمية كبيرة لنا، ولتشكيل حياتنا الخاصة. وهنا يتم استثارة الخلايا العاطفية الأعمق في المخ. وتقوم الخلايا المستثارة هناك في نهايات تغصناتها البعيدة المدى بإفراز نواقل عصبية مرنة (موصلات عصبية ومخدرات ذاتية المنشأ) والتي يُسهم تأثيرها في حال وجود هذه التجربة الممتعة ، كاكتشاف شيء جديد مثلاً أو عند حل مشكلة أو اكتساب مهارة جديدة ، في تقوية وتمهيد وتثبيت شبكات الروابط العصبية والروابط المشبكية المستثارة بدرجة كبيرة. وهكذا تتحول المسارات العصبية الهشة في البداية والتي تم تفعيلها في المخ، إلى طرق يسهل تشغيلها ثم استخدامها مرة تلو الأخرى عندما نفعل أو نتعلم

أو نقوم بشيء بشغف وحماس. وعند تكرر حدوث ذلك، عبر فترات زمنية طويلة، يمكن أن تتحول إلى ما يمكن أن نطلق عليه طرقاً سريعة. وهكذا يصبح لدينا مخ يختلف عما كان عليه من قبل. لكن البيئة المحيطة ليست هي المسئولة عن ذلك، بل الحماس الذاتي والتي يقوم فيها كل طفل بممارسة وإدراك ومعالجة وتشكيل أوجه معينة في البيئة المحيطة - في المنزل والروضة والمدرسة ومختلف الأماكن الأخرى.

وعلى خلفية هذه المعرفة يمكن الآن شرح وتفسير سبب اكتساب الرجال لعقل مختلف عن عقل النساء: فهم يهتمون منذ طفولتهم بأشياء أخرى؛ حيث تمثل أشياء أخرى مغزى مهم لهم، ويتحمسون لأشياء مختلفة عما تتحمس له البنات الصغيرات. وهذا من ناحية لأنهم من جنس الذكور ويتبعون بدرجة أكبر ما يهم الفتيان الأكبر سناً منهم أو الرجال أي ما يفعله هؤلاء بحماس وشغف، ومن ناحية أخرى لأنهم يولدون بمخ مختلف في تنظيمه وتكوينه بناء على تأثير هرمون التستوستيرون عليهم قبل الولادة. فالصبيان لهم منذ البداية مخ مختلف قليلاً. لذا يستطيعون منذ البداية القيام ببعض الأشياء بأسلوب أفضل من البنات، وبعض الأشياء الأخرى بطريقة أسوأ منهن. ولذا يهتمون منذ البداية بأشياء مختلفة عما تهتم به البنات، ولهذا السبب يتحمسون لأشياء أخرى - وكلما كبروا في السن كلما سهل تحمسهم لما يتحمس له الفتية الآخرون أو الرجال البالغون.

أي أن البيئة المحيطة أو الصفات الوراثية ليست هي المسئولة عن اكتساب الرجال لعقل مختلف عن عقل النساء: يمكن مقارنة المعطيات المتوفرة من الصفات الوراثية بأوركسترا موسيقي كبير يستطيع أن يعزف العديد من القطع الموسيقية المختلفة التي تدرّب عليها ويستطيع عزفها. لكن أياً من هذه القطع يقوم الأوركسترا بعزفها في النهاية للجمهور يعتمد على من تقوم بعزفها لهم - طالما هم موجودون على هذه الشاكلة. وحتى لو تكونت الفرقة من عازفي الناي والكمان فقط فإنها ستحاول عزف المارشات العسكرية مرة تلو الأخرى إن كان المستمعون لا يرغبون في

سماع نوع آخر سوى هذه الموسيقى. فنوع آخر من الموسيقى لن يمكن فهمه ولن يلقى ترحيباً من المستمعين لأنهم لا يعرفونه.

وأوركسترا الصفات الوراثية - على الأقل فيما يتعلق بالأدوات اللازمة لتطور العقل البشري - لا يختلف عازفوه من حيث المبدأ عن الرجال والنساء، كما أن المستمعين - ظاهرياً على الأقل - لا يختلفون. لكن لما يقوم الرجال - في المتوسط - بعزف وتقديم قطع موسيقية مختلفة ؟ وهذا منذ البداية ؟ فهم عند الولادة أكثر اندفاعاً ، ويسهل انفعالهم بصورة أسرع ويصعب تهدئتهم بسرعة. وبعد ذلك، في السنة الأولى بعد الولادة، تصبح لديهم قدرة أكبر على التصميم على فعل الأشياء من البنات ، وكثيراً ما يستولون على ألعاب الأطفال الأخرى ويسهل تحمسهم لألعاب مثل السيارات والحفارات وجرارات القطارات، وعند بلوغهم سن الثالثة على أقصى تقدير يزداد اكتراثهم بما هو ممنوع وبتخطي الحدود وكذلك الشجار ؛ ليس عند الجميع ولكن عند الغالبية العظمى منهم، في المتوسط. ومن الواضح أن أوركسترا عقولهم يُرتب ويُصنف نفسه على نحو مختلف عن الفتيات. فالآلات الموسيقية الأكثر تناغماً والإيقاعية لا تظهر كثيراً في عقول الصبية الصغار، لذا نجد في المقابل عدداً زائداً على الحد من الطبول والأبواق في الصف الأول من الأوركسترا.

ولكي نعرف كيفية حدوث ذلك، يلزم علينا التعرف إليه عن كثب " من الناحية التقنية للمخ " قبل أن نستطيع طرح السؤال عن الجمهور الذي يُفضل الصبية تقديم القطع الموسيقية له وهذا الترتيب في الجلوس وكيف يدفعهم ذلك للوصول إلى فترة البلوغ وأحياناً الرجولة الحقة.

قوة دفع زائدة على اللزوم

من الناحية النظرية يتمتع كل البشر من الجنسين بوجود نفس المعدات الوراثية اللازمة لتكوين المخ. لكن من الناحية العملية يولد الصبية بمخ يختلف في تنظيمه وتقسيمه بعض الشيء عن الفتيات. لذا يختلف سلوكهم منذ البداية قليلاً ويصبون اهتمامهم على أشياء مختلفة ويختلفون في ردود فعلهم.

فلابد أن يكونوا قد تعرضوا لشيء قبل الولادة أدى إلى استخدام معداتهم الوراثية بأسلوب مختلف منذ البداية عن البنات. وقد توصل العلم الآن إلى أن هناك مورثات معينة في الخلايا العصبية بمواضع مختلفة بمخ الأجنة الذكرية - تقوم بإفراز جينات وراثية ينمو بعضها بصورة أقوى والأخرى بصورة أضعف ، وبعضها بصورة أسرع وأخرى أكثر بطئاً من أجنة الإناث.

وينتج عن عمليات النضوج المتفاوتة هذه ذلك التنظيم المختلف لأدمغة حديثي الولادة من الذكور. وهو ما يُسهم بدوره في قدرة هؤلاء المولودين الصغار على القيام ببعض الأشياء بطريقة أفضل وأخرى أسوأ من البنات، وانجذابهم بصورة أقوى إلى بعض الأشياء واهتمامهم المتناقص بأشياء أخرى مما يعني عدم إدراكهم لها بنفس القدر، ويؤدي ذلك إلى اختلاف ردود فعلهم قليلاً - فهم أكثر انفعالاً وأكثر مبالغة. وكأن هناك شيئاً ما بداخلهم أو بداخل أدمغتهم يعتريهم ذو قوة دفع أشد. كما هو الحال في الأوركسترا الذي تتزحزح به الطبول والأبواق إلى الصف الأمامي.

والمسئول عن بعض هذا الاختلاف للجينات وما يصحبه من النظام التكويني والوظيفي المختلف قليلاً للمخ الذكري، هو التركيز المتفاوت لهرمونات الجنس بالمخ التي تصل قبل الولادة إلى الخلايا

العصبية: كثير من التستوستيرون وكمية أقل كثيراً من الإستروجين والبرجسترون، مما هو عند الفتيات.

فبعد حدوث التلقيح بنحو ستة أو سبعة أسابيع يبدأ هذا التطور الذي تتحكم فيه الهرمونات. والسبب في ذلك هو تأثير جين "إس أر واي" (SRY-Gen) المتواجد على الصبغي واي الذي يتحكم في إيقاف تكون المبايض ويؤدي إلى تكوين الخصيتين.

وأثناء نمو المخ، يبدأ هرمون التستوستيرون المرتفع منذ ما قبل الولادة عند الصبية بالتأثير على تمايز الجانب الأيمن من المخ. فقبل الولادة تبدأ لديهم عملية تكوين نصف الدماغ الأيمن والمسئول لاحقاً عن التصور المكاني بصورة أكثر وضوحاً من الفتيات. ولأن مخ البنات أقل توجهاً إلى الطرف، فإن الأطفال الرضع من الإناث أكثر استخداماً لجزئي المخ في تعلم اللغة، ولا يتكون مركز اللغة عندهن في البداية في الجانب الأيسر من قشرة المخ فقط بل في الجانب الأيمن كذلك. ومن نتائج ذلك أن النساء، في حال تعرضهن لجلطة دماغية بالجزء الأيسر، يصبحن أقل تعرضاً من الرجال لفقد قدراتهن اللغوية وغيرها من القدرات المتمركزة في الجانب الأيسر من المخ. كما أن الاستخدام الأكثر توازناً لجانبي المخ عند النساء يؤدي إلى تكون الجسم الثفني - وهو الوصلة الليفية التي تربط بين جانبي المخ - بصورة أقوى. كذلك يتم تعديل نضوج أنظمة نقل الإشارات العامة الكبرى بصورة حاسمة بواسطة ستيرويدات الجنس. فالإستروجين، على سبيل المثال، يدعم نمو مستقبلات السيروتونين ويؤدي إلى تكوُنها بكثافة أكبر في الجهاز الحوفي الانفعالي وقشرة المخ الأمامية. والفروق لا تخص فقط المواضع الهامة لأداء وظائف الإدراك، بل المواضع التي تقوم بنقل الإشارات بين الوظائف العضوية والمخ، أي بين المهاد التحتاني والجهاز الحوفي الانفعالي مع الأنوية الموجودة في النتوء اللوزي ، التي تقوم بتوجيه الخوف وردود الفعل من الخوف.

وآثار مزيج الهرمونات الذكوري في رحم الأم لا تقتصر على تطور المخ فحسب، بل تمتد إلى سلسلة كاملة من الخصائص الجسدية. ومن بينها، على سبيل المثال، شكل الوجه (كلما زادت نسبة التستوستيرون في فترة ما قبل الولادة ، كلما كان شكل الوجه أكثر " ذكورة " أو " قسوة "، أو طول الأصابع (زيادة طول أصبع البنصر من نتاج ارتفاع نسبة هرمون التستوستيرون). فالهرمونات هي إذن المسببة والمنظمة للاختلافات الجسمانية بين الجنسين. والرجال لا يحصلون على جسم مختلف لاختلاف جيناتهم أو أدمغتهم ، بل لقيام غددهم التناسلية بإفراز هرمونات مختلفة تنتقل بدورها إلى دورتهم الدموية.

و تأثير الغدد بالغ في الجسم، فهي تسيطر على عمليات النضوج في جسم الإنسان وتكوين الاختلافات الجسدية المعروفة بين الرجال والنساء. لكن ما لم يكن معروفاً معرفة جيدة من قبل هو أن نمو المخ مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتطورات الجسدية. فبعض الروابط والشبكات الخاصة في المخ لا تنشأ وتتكون مساراتها ويتم تثبيتها إلا لحصولها على الإشارة المناسبة من الأطراف أي من أعضاء الجسد. وهذه الإشارات القادمة من الجسم تقوم تدريجياً بتكوين دوائر وشبكات في المخ أكثر تخصصاً وتعقيداً لتوجيه هذه العمليات الجسدية التي تمثل الوظائف الجسمانية المختلفة. وهذه العملية تبدأ في بطن الأم مع أولى حركات الجنين وتستمر بعد ذلك طوال فترة الطفولة. وبقدر ما يتطور جسم الفتيات والصبية ، ولاحقاً أيضاً الرجال والنساء، بطريقة مختلفة ، تتكون في المخ أيضاً الدوائر والشبكات والممثلات العصبية المعنية بطريقة مختلفة تبعاً للجنس. ويمكن البدء في ملاحظة هذا التفاوت في القدرات العصبية الحركية عند الأطفال، وهكذا يقوم الصبية بتنفيذ المهام الحركية البسيطة، مثل حركات الإعادة، بطريقة أسرع قليلاً من البنات، في حين تكون البنات أسرع في تنفيذ أنماط الحركة المعقدة التي تحتاج إلى تكيف. كما أن البنات يقمن بحركات أقل بأجزاء الجسم غير المشاركة في تنفيذ مهام الحركة، لذا تبدو حركتهن أكثر مهارة وتناسقاً.

ويمكن الإسهاب بلا نهاية في وصف كل الصفات الخاصة للصبية الصغار من ناحية تقنية المخ منذ ولادتهم. لكن السبب الأساسي في أن صار الرجال على ما أصبحوا عليه حتى اليوم في محيطنا الثقافي، هو ما سنقوم بتدوينه في سجلنا الآن :

يسير الرجال منذ ولادتهم كصبية صغار بقوة دفع أكبر في طريق مختلف قليلاً .

قدر أقل من اللازم من الاستقرار

تعرف القابلات ومساعدو الولادة وأطباء الأطفال من خلال تجاربهم بأن الأطفال حديثي الولادة من الذكور يولدون بصفة عامة في حالة جسمانية أوهن وأضعف من البنات. وهذا يتضح بوضوح كبير عند ولادتهم قبل الموعد. فالأطفال حديثو الولادة الذين يموتون لأسباب صحية تزيد نسبتهم إحصائياً ببعض القدر. وكذلك تزيد عدد حالات الإجهاض للأجنة الذكرية قليلاً عن الإناث، وخاصة خلال عملية الغرس المعقدة ومراحل التطور الأولى في بداية فترة الحمل. وقد ثبت ذلك علمياً ـ حتى وإن كان في تجربة غير معدة مسبقاً. وفي السنوات الأولى بعد الوحدة، انخفض عدد المواليد الذكور في الأقاليم الشرقية لألمانيا بدرجة واضحة مقابل المواليد من الإناث. فالضغط النفسي الكبير للأمهات الحوامل أثناء فترة التحول الاجتماعي الشاقة ـ أدى إلى ولادة عدد أقل من المواليد الذكور. وفي تلك الفترة تم أيضاً إجهاض عدد أكبر من الأجنة الذكرية الحساسة عن السنوات الأكثر هدوءاً التي كانت تسبقها.

وإن كانت البويضات الذكرية الملقحة التي تمثل أساس الأجنة الذكرية المتكونة منها ثم المواليد الذكرية، أكثر وَهناً وضعفاً من الناحية الجسمانية في المتوسط ، فلابد أن يكون لكل هذا آثاره ونتائجه ـ بالنظر إلى ما عرفناه فيما يتعلق بعمليات البناء المتعلقة باستخدامات المخ. ولأنه يتم وضع الأسس لجميع عمليات النضوج والبناء في أجزاء المخ العليا وخاصة المواضع اللحائية للمخ البشري في هذه المرحلة المبكرة ، فإنه يمكن افتراض أن أدمغة الصبية الأكثر ضعفاً من الناحية الجسمانية تتطور وتتكون لاحقاً وخلال فترة الطفولة الأولى بطريقة مختلفة قليلاً عن أدمغة البنات الأكثر ثباتاً وقوة. ولا يتمتع الصبية سوى بميزة واضحة واحدة فقط وخاصة في مرحلة المراهقة : ألا وهي في استخدام القوة المفرطة. وهم يعانون منذ البداية من صعوبات أكبر في اكتساب والتثبيت العصبي لأنماط التفكير والشعور والسلوك الأكثر

تعقيداً. وعند تعرضهم لظروف أكثر مشقة وأقل دعماً لعملية التطور، فإنهم يلجئون على أغلب الظن أكثر من البنات، إلى استخدام لشبكات الربط العصبية، المتكونة لديهم قبل الولادة والأكثر وضوحاً وأقل تعقيداً. فهذه الشبكات البسيطة والقديمة مثبتة ومستقرة عندهم بصورة أكبر. وهذا يعني من الناحية العملية أنه بالنظر إلى وجود تحديات جديدة ينبغي التغلب عليها، فإن الصبية الصغار يجنحون أكثر من الفتيات الصغار إلى اللجوء إلى النماذج السابقة التشكيل مثل تفعيل بعض الوظائف الحركية البسيطة.

ولأن أي تطور بما في ذلك ما يحدث بالمخ، لا يمكن حدوثه إلا على أساس من شبكات الربط العصبية، التي تكونت من قبل، فإنه من المتوقع أن تكون لعمليات التكيف التي نشأت من قبل آثارها البعيدة المدى. فما يحتاجه الصبية بوجه خاص هو الأمان العاطفي والاهتمام والتقدير والثناء والاستحسان، وخاصة من قِبَل أبائهم. فهذا ما يبحثون عنه أكثر من أي شيء آخر. لكن للأسف لا يجد الكثير من الصبية الصغار ذلك في مجتمعنا الحالي إلا في حالات نادرة. لذا يقومون في كثير من الحالات بالنظر إلى هؤلاء الرجال الذين يصعب اتخاذهم مثلاً وقدوة يُحتذى بها؛ خاصة فيما يتعلق بنمو وتطور شخصياتهم: وهؤلاء الرجال هم سائقو السيارات السريعة ونجوم الغناء وأبطال كرة القدم والممثلون، ومؤخراً الأبطال الافتراضيون في ألعاب الكمبيوتر. ويقوم هؤلاء الصبية بتبني صفات هذه المُثل العليا التي تحظى بإعجابهم ويرون فيهم النجاح والثقة بالنفس؛ فيبدأون في اقتباس الاستراتيجيات اللازمة للتغلب على افتقادهم الثقة بالنفس وللتغلب على المخاوف التي تعتريهم، وهذه الصفات هي التكلف المفتخر والسلوك المنفتح والتعقب التام بلا هوادة للمصالح الخاصة والإعجاب بالسيارات والتحمس لكرة القدم وكل ما هو " حديث وعصري " أو لائق ومألوف الآن. ولأن بناء مخ الطفل يتحدد بشدة بمكان وكيفية استخدامه ، فإن هذا التقليد للمُثُل الخارجية المريبة - له عواقبه المماثلة على نضوج شبكات الربط

العصبية التي تُصاحب الشباب عند دخولهم عالم البالغين بعد انتهاء مرحلة المراهقة.

لكن هل يجب التفتيش عن السبب في سلوك حل المشكلات الفريد للصبية في : مخهم المختلف نتيجة لاستخدامهم المتزايد للقوة العضلية أو في الشبكات العصبية المختلفة التي نشأت تحت تأثير الهرمونات منذ بداية نموهم أو تأثير هذه المُثل العليا المربية. إن الرجال البالغون يخرجون مشاكلهم النفسية عموماً في صورة أكثر انفتاحاً وانبساطاً وحِدّة ، بينما تبحث النساء عن أسباب المشاكل بقدر أكبر داخل أنفسهن. وبينما تعاني النساء بقدر أكبر من مشكلات عائلية أو مع شريك الحياة أي مشكلات العلاقات الأسرية، فإن المشاكل النفسية التي يئن تحتها الرجال مرتبطة في أغلب الأحيان بالعمل أو الهموم المادية أو الآلام الجسدية. وعلى ما يبدو، يريد الرجال أكثر من النساء أن يثبتوا شيئاً للعالم من خلال أفعالهم حتى وإن لم يكن هناك من يطالبهم بتلك البراهين أو ينتظرها.

وهذه الفروق البارزة بين الرجال والنساء في حب السيطرة هي من السمات الواضحة في جميع الثقافات وطبقات المجتمع تقريباً. ويختلف الصبيان والفتيات بالنظر لسلوك التعلم والإنجازات المدرسية حتى مرحلة المراهقة على الأقل - مع وجود نواقص واضحة عند الصبيان. ولما كان أسس متوسط درجات الثانوية العامة يتم وضعها في مرحلة المراهقة ، فقد استمر الاختلاف بين الجنسين واضحاً في أعداد القبول بالجامعات بالنسبة للمواد التي تلقى إقبالاً كبيراً. فقد أضحي في كثير من الجامعات العدد الأكبر من الحاصلين حديثاً على درجة الدكتوراة هم من النساء، أما في توزيع الجوائز المقدمة لأفضل الأبحاث الجامعية أو عند إشغال الوظائف الأكاديمية فلا يزال الرجال يحتلون الصفوف الأمامية. وإن كان ذلك لا يعكس سوى رغبة الجنس الذكري في السيطرة وإعداد أساتذة الجامعة القائمين على التقييم - حيث مازال الرجال يمثلون العدد الأكبر. ولأن الرجال يستمدون الجزء الأكبر من الشعور بالأهمية من تكريمهم في العمل؛ فإن الخطر الأكبر

لتعرض الرجال في منتصف العمر لأزمات الاكتئاب يكمن في الخوف من فقدان الوظيفة، في حين يعود ذلك عند النساء إلى افتقاد العلاقات الاجتماعية التي تمنحهم الدعم.

لقد أدى التحول التالي للوحدة في المانيا، بعد عام 1989، إلى حدوث تغيرات اجتماعية بارزة في أوروبا الشرقية. وبالرغم من الارتفاع السريع لاجمالي الناتج القومي في كثير من هذه البلدان بعد فتح الحدود، فقد ساءت الظروف الاجتماعية بالداخل كثيراً بما واكبها من ازياد الفروق بين الأغنياء والفقراء وتفشي الشعور بالقلق وعدم الاستقرار بوجه عام. وقد ظهرت النتائج المترتبة على ذلك بصورة أقوى عند من نطلق عليهم " الجنس الخشن "، وذلك بارتفاع نسبة المصابين بالاكتئاب والأمراض المزمنة وإدمان الكحوليات وارتفاع معدل الوفيات لدى الرجال الذين تعدوا سن الأربعين عما كانت عليه في عام 1960. فالقلق من فقدان مكان العمل وعدم وجود مغزى للحياة أو عدم وجود شريك في الحياة، يضاعف من مخاطر الموت المبكر إلى ثلاثة أضعاف المعتاد - فأضرارها تماثل أضرار تدخين علبة إلى علبتين من السجائر يومياً. أما أكبر عوامل الخطر عند السيدات على الإطلاق؛ فتكمن في المشكلات والهموم الأسرية، بينما نجدها عند الرجال في افتقاد تقديم السند والدعم من قبل الزوجة.

وسواء كان السبب في ذلك هو افتقاد الرجال للصبغي إكس الثاني؛ أي أنهم يبدأون الحياة على نحو ما بدون " إطار احتياطي " أو أنه يسهل خروجهم عن المسار أو أنهم يبحثون عن الدعم الخارجي ويحتاجون بشدة إليه ، فإن النتيجة في النهاية واحدة ويمكننا تدوينها في سجلنا كالتالي :

الرجال هم الجنس الأقل استقراراً والأكثر احتياجاً للدعم الآتي من الخارج .

دعونا نجمل مرة أخرى : يبدأ الرجال حياتهم منذ الولادة تحت ظروف مختلفة عن النساء. وتفكيرهم وشعورهم وتفاعلهم منذ طفولتهم بطريقة مختلفة عن البنات، يرجع إلى نمو مخهم قبل الولادة بطريقة مختلفة. والسبب في ذلك هو إفراز مختلف قليلاً لبعض الجينات المنظمة لتمايز الخلايا العصبية. ويتم تشغيل هذا الإفراز الفريد في الدماغ من قبل المزيج الخاص من الهرمونات، بنسبة هائلة من التستوستيرون وكمية قليلة جداً من الاستروجين والبروجستيرون، وهو المزيج الذي يغمر الأجنة الذكرية منذ الأسبوع العاشر من الحمل. ويرجع السبب في ذلك إلى ضمور المبايض التي كانت قد تكوّنت مبادئها في الأسبوع السادس من الحمل ونمو الخصيتين بدلاً منها، وهي العملية التي تتحكم فيها الجينات الموجودة في الصبغي واي.

وهذا حسن إلى الآن.

وهكذا نكون قد وصلنا إلى الطرف السفلي من سلسلة ردود الفعل، التي تقوم فيها أسباب معينة بخلق نتائج تؤدي بدورها إلى تحول النتائج إلى أسباب لنتائج أخرى. وفي البداية لا تصل سلسلتنا هذه في طرفها العلوي سوى إلى الصبية الصغار. ولكي نستطيع التعرف على كيفية تحولهم إلى رجال حقيقيين، يجب أن نمد هذه السلسلة إلى داخل تلك المنطقة التي يتأثر فيها تطور هؤلاء الصبية الصغار بعالمهم وبالثقافة والتصورات الذكورية لتوزيع الأدوار في كل مجتمع والتي تحيط بهم من الآن فصاعداً بما لديهم من صفات دماغية خاصة، والتي يريدون غالباً اكتسابها أو يُجبرون في كثير من الأحيان عليها.

وكما كان من الخطأ، كما هو الحال حتى الآن، إلقاء اللوم بالنسبة لهذه العمليات الخاصة بالنمو والتطور على النظم الوراثية أو على البيئة المحيطة، فسيكون من الخطأ الآن اعتبار الجزء الأول من سلسلة

العلة والمعلول عملية تطور حيوي بحتة والنظر إلى الجزء الذي يعقبها باعتبارها عملية تكيف ثقافي اجتماعي وحسب. فكل ما يتم في مسار تطور البشرية على المستوى البيولوجي من عمليات، يتأثر بالظروف الفكرية والثقافية والاجتماعية السائدة، ويصبح ممكناً من خلالها وهي التي تقوم بتوجيهه ودفعه إلى اتجاهات معينة. وعلى العكس تتأثر جميع التطورات الفكرية والثقافية والاجتماعية وتصبح ممكنة وتتحكم فيها هذه " المصفوفة البيولوجية " والتي نشأت أو تكونت حتى ذلك الوقت في شكل شبكات ربط عصبية محددة في أدمغة الصبية الصغار. فما يميز عملية التحول إلى رجل منذ البداية، ليست شروطاً بيولوجية أو اجتماعية ثقافية، ولكنها في الحقيقة عملية التمايز الجنسي. وفي هذه العملية تطرأ عند الذكور اختلافات وتمايزات ذكرية محددة لأجزاء معينة من إجمالي القدرات التي نتميز بها نحن كبشر بصرف النظر عن جنسنا.

والرجال هم إذن شكل متمايز في اتجاه معين وبشكل خاص من البشر - والنساء بالطبع كذلك. وذلك على المستويين : أولهما مستوى فرص التطور الموجودة في الإنسان في سياق عملية التطور البيولوجي وهذه هي ثروتنا الوراثية؛ وثانيها على مستوى مساحات التطور والانطلاق الخارجية التي تم إنشاؤها في سياق تطورها الثقافي والاجتماعي والفكري (وهذه هي ثروتنا الاجتماعية الثقافية أو الفكرية).

والرجولة تبدأ مع عملية تمايز بعض الأجزاء على المستوى البيولوجي خلال تطور البويضة المخصبة وحتى ميلاد الصبي. لكن يليها بعذ ذلك مزيد من التمايز للمصفوفة البيولوجية بواسطة القدرات الفكرية والاجتماعية والثقافية وهي المعطيات الخارجية التي يجدها الأطفال خلال نموهم داخل وسط ثقافي معين.

وباعتبار الإنسان هو الكائن الحي الوحيد القادر على توسيع هذه القدرات الفكرية الثقافية التي خلقها بنفسه؛ فإن عملية التحول إلى رجل

تقدم دائماً إمكانية التعرف، بشكل فردي أكبر في بعض الأحيان وأقل في أحيان أخرى، على مجالات معينة لهذه البيئة المحيطة وكيفية استخدامها وتطويرها.

لكن عملية التمايز الفكري الثقافي التي يقوم الرجال بدفعها قدماً معرضة دائماً لخطر التوقف في النهاية في طريق عقيم مسدود من فرص التنمية الفكرية والثقافية للإنسان. وهذا هو الحال دائماً عند نمو " ثقافة ذكورية " متمايزة جداً تُمثل إن عاجلاً أو آجلاً خطراً على عملية الإنجاب الخاصة لديهم - سواء كان ذلك بفقد جاذبيتهم عند النساء أو لعدم الحاجة إليهم كآباء مُعيلين. وهكذا تسترد المتطلبات الحيوية ضرورة وجودها في كل ثقافة ذكورية بمجرد ابتعادها عن هذه الثقافة في نهاية المطاف. لكن الصبية الصغار لا يعرفون هذا ويبحثون بما تطور لديهم من احتياجات واهتمامات ومهارات خاصة، عن الطريق في إطار المعطيات والفرص المتاحة في البيئة الخاصة لحياة كل منهم. ويتم دفع البعض في اتجاهات معينة واستدراج البعض للسير في مسارات محددة وجذبهم إلى داخل فخ قبل أن يكونوا قد أدركوا ولو بشكل سطحي ماذا يعني أو إلى أين يسير بهم هذا الطريق. لذا يفشل عدد كبير منهم أو يضيع في متاهة الطرق التي تم اختيارها في محاولة أن يصبحوا رجالاً.

وأوضح مسار محدد مسبقاً لطريق تطور الأبناء الصغار- يكون في جماعات صغيرة منظمة تنظيماً دقيقاً للغاية؛ حيث يتم ضغطهم ودفعهم في أدوار تقليدية ضيقة جداً ومُعرَّفة تعريفاً صارماً للغاية وعبر أجيال عديدة وذلك في محاولتهم لأن يصبحوا رجالاً. وقلما يُمنحون الفرصة ليصبحوا شيئاً مختلفاً عما يتوقعه وينتظره، في أحيان كثيرة الأم نفسها، لكن بصفة خاصة الأب والأبناء الأكبر سناً والرجال البالغين في هذه المجتمعات ذات الطابع الثقافي الخاص. ودون أن يفهموا تماماً ما حدث لهم، يكونوا قد أصبحوا أعضاء من الذكور البالغين في هذه المجتمعات. وعلى هذا النحو يدفعون تلقائياً الجيل القادم

من الفتيان للسير في المسار نفسه الذي وجدوا أنفسهم عليه كمراهقين. وهكذا يتكرر النسل الذكري بما يعتبره أعضاء هذه الجماعات صورة الرجل الحقيقي من وجهة نظرهم.

وهذه الثقافات التقليدية ذات الصورة الرجولية الواضحة جداً، هي في الأغلب مجتمعات مستقرة وذات فاعلية كبيرة للغاية في قدرتها على تطوير مساحات للحياة والموارد الجديدة ، وهي تقوم بتنفيذ ذلك بواسطة أو ربما بسبب استخدامها لوسائل حربية عنيفة. وتتعرض هذه الثقافات تلقائياً إلى صعوبات جمة عندما تفقد ما يمكن أن تستنبطه أو تستولي عليه، لأنه قد تم توزيع الموارد الطبيعية في شكل أراضي أو موارد معدنية ، كما أن المجتمعات الأخرى المجاورة لها قد أضحت الآن مدججة بالسلاح ولم تعد هدفاً سهلاً للهجوم.

تحديداً بمجرد تعادل ميزان القوى بين ثقافتين متناحرتين يصبح مفهوم دور الرجل باعتباره المحارب والجندي والفاتح والحاكم عبئاً على هاتين الثقافتين.. وهنا يثبت لهم تفوق تلك المجتمعات الثقافية الأقل جموداً، في تمسكها بالتفرقة القديمة بين دور الرجل والمرأة والتي تمنح الرجال والنساء مساحات أكبر من الحرية لتجربة طرق تنمية أخرى غير الطرق التقليدية لتجربتها أو انتهاجها. وهذه المجتمعات أكثر مرونة وبالتالي أكثر قدرة على التكيف، وأكثر استعداداً للتجارب الجديدة وبالتالي أكثر قدرة على التطور من تلك المسجونة في أدوارها التقليدية. وهي لذلك مجتمعات أقل تنظيماً وأقل صرامة في نظامها الهرمي وكذلك أقل كفاءة بالنظر لبعض القدرات التي يحملها المفهوم القديم لتوزيع الأدوار. بعبارة أخرى: إنها أكثر سلاسة ويسهل اختراقها، وإن كانت أقل قدرة على خوض الصراعات العسكرية. وفي حالة الحرب يفتقر جنودها الذاهبون إلى الحرب الاقتناع القائم على التحمس لدورهم الرجولي الهام. وتزيد مظاهر هذا الذوبان لمفهوم دور الرجل في بعض المجتمعات عن غيرها. وبالرغم من أن هذه العملية كانت يمكن أن تسير بصورة أبطأ مما هي عليه الآن في العالم، فإنه لم يعد ممكناً إيقاف أو إرجاع عجلة عملية الذوبان للمفهوم

التقليدي لدور الرجل القائم منذ العصر الحجري والتي بدأت في العالم الغربي وانتقلت منه إلى ثقافات أخرى.

والسؤال عن سبب كون الرجال على ما هم عليه الآن ليس قائماً على تحليل ما أدى في الماضي لأن تكون أغلبية الرجال على ما هم عليه اليوم فحسب. أولاً فإنه وللأسباب المذكورة تواً يمكن التحدث عن " نموذج بائد انتهت صلاحيته " لوظيفية الجنس الذكري. وثانياً لأن ما كان يمر به وتم ممارسته مع الصبية الصغار في جميع الثقافات المتشبثة بصورة جامدة وتقليدية للرجال؛ ليست اكتساباً للرجولة، بل ممارسات محددة للغاية من الترويض والتدريب الصارم. ولا تزال تُستخدم وسائل العقاب والتعليم في أجزاء كبيرة من العالم لتحويل هؤلاء الصبية الصغار إلى ما كان يُعتبر، ولا يزال، " رجولياً " في هذه الجماعات.

وفي ضوء التهديد المستمر الذي كانت تتعرض له هذه المجتمعات القديمة من قبل الأعداء الخارجيين، لم يكن هذا النموذج الرجولي مفيداً فحسب بل حيوياً للبقاء، ليس للرجال فقط بل للنساء أيضاً، سواء كان بوعي أو بدون وعي.

وقد ظل استمرارهن في البقاء ومكانتهن في المجتمع ورفاهيتهن وضمان وجود التقاعد متعلقاً دائماً بإمكانية العثور على والزواج برجل يكون قادراً على توفير كل ذلك لهن، ثم قيام الأمهات بتربية أبنائهن على النهج الذي يُمكّنهم من " إثبات رجولتهم " في الحياة وذلك في إطار مفهوم دور الرجل الذي يتطلبه ذلك المجتمع.

وهذا المفهوم لا يزال حتى اليوم نتيجة حتمية لهذه التشوهات الثقافية المتوارثة عبر الأجيال بدون وعي والذي لا يزال يحمله كثير من الرجال من ثقافتنا وكذلك آباؤهم وآباء آبائهم، وليست نتيجة أي صفات وراثية بيولوجية متوارثة من العصر الحجري وغير مناسبة لعصرنا الحالي : فقد تم تربيتهم بهدف واحد، وأحياناً إنجابهم لتحقيق هذا الغرض، وتوظيفهم

كصبية صغار ولاحقاً كمراهقين، وإعدادهم وجعلهم يقومون بتلبية احتياجات أو على الأقل تحقيق توقعات وآمال أمهاتهم وآبائهم ومدارسهم وجامعاتهم ثم بعد ذلك زوجاتهم والاقتصاد والمجتمع الذي ينمون فيه.

ولقد تغيرت بطبيعة الحال التوقعات والمطالب والآمال الموجهة لهؤلاء المراهقين من جيل إلى آخر، حتى أن أجداد هؤلاء الذين أصبحوا آباءَ اليوم كثيراً ما كانوا هم أنفسهم يتطوعون للاشتراك في الحرب في بلادنا في القرن الماضي، أو كما كان يُطلق عليه آنذاك عدم التنصل من مسئوليتهم الوطنية باعتبارهم رجالاً مؤمنين بواجبهم. وهذه الصورة الأقدم لدور الرجل باعتباره بطل الحرب الشجاع قد فقدت عندنا، على الأقل وإلى حد بعيد، بريقها القديم الذي استمر متوهجاً لآلاف السنين. فالصبية الصغار يفضلون أن يصبحوا اليوم نجوماً كبار أو لاعبي كرة قدم مشاهير أو من المشاهير أو الأغنياء أوالمرغوب فيهم لأي سبب آخر. وتسعى الأمهات والآباء لمساعدة أبنائهم في تحقيق ذلك على قدر الإمكان. ويصبح ذلك أسهل نوعاً في حال نجاح الأبوين في تحقيق قدر من الثروة والنفوذ والراحة المادية. أما الآخرون فيجب عليهم بذل مزيد من الجهد لكي يتمكنوا من تحويل ما لديهم من إمكانات - ويُعد أبناؤهم الصغار منها أيضاً - إلى أفضل ما يمكن. وهكذا نكون قد وصلنا بملاحظاتنا إلى الوقت الحاضر.

ومن المثير للدهشة أن الطريقة التي يتحول بها اليوم الأبناء الصغار إلى " رجال " لا تختلف كثيراً عما كان يحدث من قبل. لكن تَغيَّر ما كان يُعتبر " الأفضل " للرجل، وما كان الآباء والأمهات يحاولون صنعه بكثير من الجهد من أبنائهم. فاليوم لا يجب أن يكون " الرجال الحقيقيون " جنوداً شجعان أو مؤدين لواجباتهم الوطنية أو موظفين يستحقون التقاعد، بل شيئاً مختلفاً، شيئاً يحظى بأهمية جمة في ثقافتنا الحالية.

وما يُعتبر " رجلاً حقيقياً " اليوم، لم يعد ممكناً تعريفه بوضوح مثلما كان الحال من خمسمائة أو مائة أو خمسين أو حتى منذ عشرين عاماً. فما كان يُنظر إليه في عهد آباء اليوم عندما كانوا صبية صغار بأنه " الأفضل " وما كان يمثل هدف وآمال الجهود التعليمية لأبنائهم يمكن أن يكون بالنسبة لأبنائهم، بعدما أصبحوا هم أنفسهم رجالاً بالغين، شيئاً مختلفاً تماماً. فصور أدوار الرجال أضحت سلسة ومتغيرة بسرعة فائقة لدرجة أنها لم تعد صالحة كقدوة لتوجيه الآباء والأمهات أو الأبناء في طريقهم للوصول إلى عالم الكبار.

لم تعد هناك إذن أدوار واضحة لكيفية تحول الأبناء الصغار إلى رجال بالغين، أدوار يتولونها ويقومون بها كبالغين. فالمسرحية التي كان يظهر بها الرجال، منذ بدء الخليقة، في مختلف الأدوار؛ وخاصة تلك التي لعبوا فيها دور المحارب والحاكم ومُتولي السلطة والقانون - قد انتهت. وقد وصلنا، دون رغبة منا، في زمن لم يعد فيه من الضروري لعب دور رجل. فما يهم بدلاً منه هو ضرورة أن يصبح رجلاً قويماً.

وعملية النضوج للوصول إلى مرحلة الرجل القويم هي طريق داخلي، وعملية ترافق الولد الصغير في طريقه إلى رجل بالغ هي عملية تنظيم ذاتية لتطور القدرات. وقد تم استخدام الأبناء في مسرح الأدوار القديمة للقيام بالأدوار الذكورية التقليدية في مجتمع ما. وكانوا موارد متجددة للمسرحية التقليدية القديمة التي لا يزال يتم عرضها حتى اليوم.

وهؤلاء الفتية الذين توقف الدفع بهم إلى دور الرجال المحدد سلفاً، لم يعودوا نافعين ومؤهلين للمسرح القديم. فالمسرح القديم برمته لم يعد صالحاً للاستخدام. وهكذا ينتهي أخيراً وإلى الأبد تمثيل الدور الذي كان مفروضاً على الرجال. فمن لم يكتشف بنفسه من هو وما هي القدرات الكامنة بداخله - والتي لا يمكن لأحد تطويرها غيره - يمكنه البقاء في

المنزل ومحاولة الوصول إلى تمثيل نفسه في العوالم الافتراضية بالإنترنت. لكنه لن يصبح زوجاً حقيقياً ومحبوباً أو أباً قويماً لأبنائه. سيكون كمن شاهد الفصل الأخير من مسرحية درامية كبيرة، وينتهي به المسرح الحقيقي في عالمنا المعاصر كمسرحية افتراضية.

ولا يمكن أن يكون الرجل قويماً، وأن يرغب في الوقت نفسه في القيام بلعب أدوار سواء في مسرحيات حقيقية أو افتراضية. ولا جدوى من انتظار حل خارجي للخروج من هذا المأزق، عن طريق النساء على سبيل المثال. فقد أصبحت للنساء منذ فترة طويلة مشاكلهن الخاصة مع الدور الذي يلعبنه أو أجبرن على لعبه. وكذلك الأمل في عودة الصور القديمة المفقودة للرجال وإمكانية تألقها في مجدها القديم مرة أخرى، لا يمكن أن يضمرها إلا من لا يزال راسخاً في اعتقاده أنه يجب أن يلعب دوراً معيناً لكي يكون رجلاً حقيقياً. ولن تقوم السياسة بالتأكيد بحل هذه المشكلة. وكذلك الجيش. فقد وصلنا تقريباً إلى نهاية المطاف. فلا يمكن انتظار المساعدة من الخارج، لذا لم يبق لنا سوى الداخل. علينا أن نقوم الآن بالبحث في داخلنا عن إجابة على السؤال كيف دخلنا في هذه الفوضى، في هذا المأزق ما بين الأصالة والقوامة ولعب الأدوار وكيف يمكننا الخروج من كل ذلك مرة أخرى.

والحاجة إلى القوامة هو ما يشعر به الرجل منذ أن يكون صبياً صغيراً. وهو في البداية يكون قويماً. لكن الصبية الصغار يشعرون بالحاجة؛ بل بحاجة شديدة إلى لعب دور محدد على أن يكون دوراً مهماً على قدر كبير من الأهمية قدر الإمكان، وأن يلقى التقدير والاحترام، وأن يكون مهماً، وأن يكون عضواً مرغوباً فيه. وهو بالتأكيد شعور يخالج كل البشر، أي البنات الصغار أيضاً. لكن يبدو أن البنات لسن بحاجة شديدة إلى البحث عن الدعم والأمان في الخارج ، وادعاء الأهمية والبحث عن الاحترام كما هو الحال لدى الفتيان المتأثرين بالتستوستيرون من قبل الولادة والذي أدى إلى زحزحة الطبول والأبواق إلى الأمام والآلات التناغمية والإيقاعية إلى الخلف. لكن ما

عسى الفتى الصغير أن يفعل بذلك الأوركسترا بداخل دماغه المجهز بقوة دفع زائدة واستقرار أقل من اللازم ؟ لابد أن يقوم بالبحث عن الدعم والتماسك وذلك ليس بقدر أكبر من الفتيات الصغيرات فحسب، بل بمزيد من الضغط على دواسة السرعة. لكن من أين يستقي الصبي الصغير المفعم بالطاقة الأكبر وذي البناء الجسماني الأقل استقراراً هذا الدعم ؟ ليس في الداخل - بطبيعة الحال - بل في الخارج، في كل مكان يمكن للفتى الصغير أن يتشبث به ويتكيء عليه وينشغل به ويمنحه القوة: في آلات ضخمة وذات قدرات هائلة مثل الحفارات وسيارات الإطفاء والشرطة، وفي الطائرات والسفن الكبيرة ، وفي وقت سابق بصفة خاصة في الدبابات والمدافع والبنادق التي تطلق النيران. نعم، ومن ثم بالطبع أيضاً من نماذج القدوة القوية، وهم الرفاق الأكبر سناً في رياض الأطفال والذين يعرفون أكثر منهم ما هو المهم في الحياة والذين لا يجرؤ الأطفال الآخرين على معارضتهم، ناهيك عن تهديدهم بالضرب. ويمكن العثور على الدعم أيضاً في الفتيان داخل العصابات والذين يمكن الانضمام إليهم واكتساب أفكارهم وتصوراتهم. وإن نجح أحدهم في الحصول على قدر كبير من الاعتراف أو أن يصبح قائداً لمجموعة من مجموعات الشباب هذه، فإن ذلك يمنحه قدراً كبيراً للغاية من الدعم. ويزيد ذلك بالنسبة لمن يكافح ضد الآخرين وينجح في هزيمتهم. ويتمتع بالتقدير والاحترام والدعم أيضاً من يملك دائماً أحدث ألعاب الكمبيوتر - أو الملابس الرائعة أو سارع في عمل ثقب إضافي بالأذن أو صبغ شعره باللون الأحمر. ويشعر بالدعم والمساندة أيضاً من يستطيع التفاخر والتميز في شلته سواء كان ذلك بالتزويغ من المدرسة أو السرقة من المتاجر أو كسر هوائيات السيارات أو رش الجدران التي تم طلاؤها حديثاً أو ثني أعمدة الإضاءة بالشوارع أو سب المعلمة بأنها " غبية حقيرة " أو بالصراخ الشديد في ملعب كرة القدم.

وهذا السلوك يجلب القوة والاستحسان، ويقدم الكثير من الدعم. وكلما كان الإنسان ضعيفاً كلما كان أكثر ميلاً إلى هذه السلوكيات. وكلما زادت قوة الدفع، كلما زاد سعي الإنسان إلى الشعور بالأهمية ، وهو ما يطلق

عليه أطباء النفس " البحث عن الاستثارة (Sensation Seeking)". لكن من يخشى المخاطر، ومن لا يستطيع فرض رأيه، ومن لا يريد قياس قوته، ومن لا يريد الانضمام إلى شلة من الفتيان ويفضل اللعب مع البنات، ليس فتى حقيقياً في رأي الآخرين. وكيف يجد هؤلاء الصبية احتياجهم الزائد من الدعم، والذي يحتاجونه بالضرورة لأنهم يولدون بهذا الأوركسترا المجنون في الدماغ؟ إنهم يبحثون عن الدعم عند الأم ويصبحون " حبيبها المفضل "، ويكونوا على أتم استعداد لتحقيق أي شيء لها. ويتعلمون قراءة رغباتها السرية من عينيها، ويبذلون قصارى جهدهم في المدرسة، ويجتهدون في أداء واجباتهم المدرسية وغسل الأواني ويحاولون أن يصبحوا كل ما كانت تتوق أمهم في أعماقها إليه. وطالما لازالوا " أمير الأم الصغير " فإنهم يحتملون المضايقات في المدرسة وسب الفتيان الآخرين لهم بأنهم وصوليون ويتملقون أساتذتهم. لكن عندما يتقدم بهم السن في وقت لاحق ويرفضون الاستمرار في أداء دور حبيب الأم، يفقدون هذا الدعم مرة أخرى. ويقعون في بعض الأحيان في حفرة عميقة ويصبحون فريسة لإحدى أنواع الإدمان: مرض الشراهة ومرض فقدان الشهية الذي أصاب الرجال الآن أيضاً، والطموح المرضي والسلوك القهري وإدمان المقامرة وليس آخراً الهروب إلى نشوة المخدرات أو إلى العوالم الافتراضية لألعاب الكمبيوتر.

هناك مجموعة أخيرة صغيرة من الصبية الباحثين عن الدعم، التي لا تزال تتمسك بقدر أكبر بالتصورات البالية للرجولة: وهي العنف والسلطة والقهر. ويقضي الصبية الباحثين عن الدعم والأكثر خوفاً وحذراً الجانب الأكبر من وقتهم في ممارسة ألعاب الأسلحة والقنابل في الكمبيوتر. ومن يجدون تلك الألعاب افتراضية بدرجة زائدة عن اللازم ينضمون إلى عصابات البلطجة، وهؤلاء الذين يرون أن الجماعات تثير أعصابهم يزودون أنفسهم بالأسلحة أو المفرقعات أو اي شيء آخر يصلح لإرسال من لا يعجبهم إلى الدار الآخرة، كما يفعل أبطال مثل سوبرمان: وذلك داخل تفكيرهم في أغلب الأحيان، وفي الواقع في بعض الحالات الفردية.

وأهم ما توصل إليه علماء المخ هو أن المخ يصبح كيفما يتم استخدامه بشغف؛ أي بمشاركة عاطفية قوية. لذا تنتفي هنا الحاجة إلى الإشارة إلى أن الشبكات العصبية أو المشابك الكيميائية في المخ لكل هؤلاء المراهقين الممثلين للجنس الذكري - يتم حفرها وتثبيتها وتوسيعها إلى شوارع وطرق سريعة أفضل، إن كان هؤلاء الصبية في طريق البحث عن الدعم يستخدمون عقلهم بهذه الكثافة وبهذا القدر الكبير من المشاركة العاطفية مرة تلو الأخرى. وعندما يصبحون بالغين سيكون قد تكوَّن لديهم مخ يستخدمونه في عمل كل ما تدربوا عليه لمدة طويلة وبكثافة وكثير من المشاركة العاطفية في بحثهم الطويل عن الدعم: عقل ذكري متوسط ذي تكوينات متميزة لهذه المناطق التي تم تنشيطها بوجه خاص خلال تلك الأعمال المقدِّمة للدعم.

وقديماً، عندما كانت الأغلبية العظمى من الفتيان ترغب في أن تكون جنوداً وأن تموت موتة الأبطال، كانت المسارات النوعية الخاصة بالرجال في المخ موحدة بدرجة أكبر. حتى وإن كان بحثهم الحالي عن الدعم يسير في اتجاهات عديدة مختلفة؛ مما أدى إلى وجود ظواهر تكيف هيكلية ووظيفية في المخ أكثر تعدداً وتنوعاً - يبقى الأمر كما كان عليه دائماً: شيء تم بناؤه في داخل المخ بكثير من الجهد والتفاني تصاحبه الآلام في أحيان عديدة. شيء لم يتحدد بنفسه بل من الخارج عن طريق هذه القشات التي تم العثور عليها والتشبث بها في طريق البحث عن الدعم.

لكن إن كان هذا التطور، كما سبق وأن توصلنا إليه ، هو نموذج انتهى عهده وولى ، فسيبقى السؤال مفتوحاً عن كيفية سيره في اتجاه آخر. وخاصة أن الصبية الصغار لا يزالون يشقون طريقهم في الحياة إلى الرجولة مجهزين بهذه الطبول والأبواق الصاخبة وبآلات الكمان والناي الضعيفة داخل أدمغتهم.

والجواب بسيط بنفس قدر صعوبة تنفيذه العملي : يجب أن تُقدم لهم فرص أكثر تعدداً وأفضل لتلبية احتياجهما الرئيسيين اللذين ولدوا بهما في هذا العالم ؛

أحدهما: هو الحاجة إلى الترابط والاحتواء والشعور بالأمان. وهو ينمو منذ الخبرة المكتسبة في رحم الأم. فبدون هذه التجربة الأكثر عمقاً من الترابط والاحتواء، لا يستطيع أي طفل أن يرى نور الحياة. وهي صفات ترسو بعمق في مخ كل طفل حديث الولادة، وهي التي تحدد التوقعات التي يشق بها كل فتى وكذلك كل فتاة بعد الولادة - طريقه في الحياة. ويقوم الفتيان بذلك بشدة وعنف أكثر قليلاً من الفتيات لأنهم أكثر ضعفاً من الناحية الجسمانية، لذلك يحتاجون إلى المزيد من الترابط والاحتواء والأمان.

والاحتياج الآخر: هو الحاجة إلى تعلم أشياء جديدة، والقيام بواجبات تسمح بالنمو؛ أي تطوير القدرات والحصول على الاستقلال والحرية. وهي أيضاً راسية بعمق في مخ كل طفل حديث الولادة، لذا نجد أن جميع الأطفال يتمتعون بهذا القدر الكبير من الانفتاح والرغبة في الاكتشاف والابتكار. ولهذا السبب يتوقعون أن يجدوا بعد الولادة الفرصة لكي يكونوا مستكشفين للعالم ومبتكرين - الصبية مثل الفتيات. والصبية بقدر أكبر قليلاً بسبب هذه الطبول والأبواق في أدمغتهم.

لكن كيف يمكن أن يكون شكل الحل لهذه المعضلة ؟ فكيف يمكن أن نمنع أن يضل الأولاد بوجه خاص في طريق البحث عن الدعم أو الضغط عليهم لأداء أدوار كانت حتمية لأسلافهم الذكور على مر الزمان ؟

إن الإجابة بسيطة لدرجة يصعب معها التلفظ بها: يجب أن يجدوا شخصاً، من الأفضل أن يكون الأم أو الأب أو الاثنين في أحسن الأحوال ، يتقبلهم دون تحفظ وبلا شروط ، على أن يكون تقبلهم على ما هم عليه وبدون وجود أي نية أو قصد لتغييرهم أو تحويلهم إلى أداة معينة. وبدون

توقع الحصول على شيء مهم ، وبدون الشعور بالحاجة إليهم وبدون أحكام مسبقة وبدون غرض. ليس كشيء ولا بصفتهم موارد ما ، بل كباحثين عن شيء وأبناء لهؤلاء الآباء الذين هم باحثين أيضاً ويريدون البقاء كذلك. وهذه العلاقة الإنسانية الخاصة الخالصة الخالية من أي أغراض والتي تمنح الصبية الصغار الشعور بالارتباط العميق، والتي تدعوهم في كل لحظة ومراراً وتكراراً، وتشجعهم وتلهمهم إلى شق طريقهم باعتبارهم مكتشفين صغاراً للعالم وصانعين لعالمهم الخاص ولذاتهم الخاصة.. والبقاء في نفس الوقت في أعمق درجات الترابط ؛ لها اسم : ألا وهو الحب .

وكلما غاب الحب أو ضاع على الطريق، لا يسع الأولاد ببنائهم الجسماني الأضعف وقوة الدفع الأشد؛ إلا الاستعداد لما سيأتي وإعداد أنفسهم على نحو افضل والتسلح بأسلحة أقوى ضد الأخطار وضد ذلك المسرح الكائن في عالم يفقد الحب باضطراد والذي سيُرغمون على النمو في داخله في المستقبل المنظور. نحن الأمثلة والقدوة لهم. وقد حان الوقت لكي نصبح رجالاً صالحين وذوي سيادة. وإلا فلن يصبح بمقدورنا أن نُبيّن لهم أو لأمهاتهم معنى أن يكون الإنسان محبوباً حقاً.

الجزء الثاني:

التحول إلى الرجولة

رحلة الجنس الضعيف للبحث عن دعم :

طريق الآلام ومراحل التحول للرجولة

لا يولد المرء رجلاً ولا يصنع المرء رجلاً أيضاً.

ولا يمكن للمرء أن يصبح رجلاً من خلال الآخرين؛ بل من خلال نفسه فحسب - من خلال عملية نضج وتمايز يمر بها كل كائن ذكوري في حياته والتي لا تدور رحاها على صعيد مظهره الخارجي بقدر ما تعتمل في داخله. ولا يضمن سواء الرب ذو النوايا الحسنة أو التكوينات الجينية جيدة التركيب، نجاح هذه العملية من التطور والتحول في طريق الرجولة نجاحاً أكيداً حقاً. كما لا يوجد ضمان على أن هؤلاء الأولاد الصغار لن يتعثروا بشكل ما في الطريق، أو لن يضلوا طريقهم في أي مرحلة.

يتخذ هذا الخوف حجماً أكبر في بعض الثقافات وتحت ظروف معينة مما هو عليه في مجتمعات وأزمنة أخرى. ومن الممكن أن تتكرر حالات فاشلة في التحول إلى الرجولة تحت ظروف سيئة للغاية، مما يصور فشل هذه العملية المعقدة كما لو كان هو القاعدة أي " الحالة الطبيعية ". ومن ينشغل فقط بالحالة الراهنة وليس بما هو مفترض أن يكون، فهو لا يختلف حالاً عن غيره من كثير من الناس ممن يرجعون تقدمهم في السن إلى ما يبدو شائعاً ومن ثم " طبيعياً " في محيط ثقافتهم بخصوص التقدم في السن. حيث يغفل الناس بكل بساطة الأمثلة النادرة والناجحة في الوقت نفسه على تقدم العمر والتي توضح ما يمكن أن تصل إليه قدرة الإنسان في السن المتقدم، لكنه لا يُمثل القاعدة؛ أي " الحالة الطبيعية ". وهكذا يُفضل المرء أن يظل مثل بقية الناس ويبحث لنفسه عن المبررات المناسبة في أنه مثل أي إنسان.

يقدم علماء نفس النشوء والارتقاء وأخصائيي علم الأحياء الاجتماعي - التفسيرات القابلة للتطبيق بشكل خاص في الوقت الحاضر

حول ما يميز هذا " الرجل الطبيعي "؛ حيث يرون أن الرجال مبرمجون على مواصلة نقل جيناتهم بشكل مؤثر وفعّال قدر الإمكان لكثير من الأجيال التالية. وطبقاً لتفسيراتهم فإن كل امرأة تحمل من رجل تزيد عدد جيناته التي يُسربها إلى الجيل التالي. لذا ووفقاً لهذا السجال الخاص بعلم أحياء التطور؛ فإن رغبة الرجل في نشر إرثه البيولوجي تدفعه إلى تعدد الزوجات وإلى إقامة علاقات غير مشروعة. وهكذا وبحسب هذا التصور لا يصبح بعض الرجال على استعداد لإقامة علاقة دائمة مع امرأة واحدة - بالطبع مع وجود تلك الأبواب الخلفية المتمثلة في صحبة نساء أخريات وعاهرات؛ إلا وفقاً لظروف اقتصادية واجتماعية وثقافية معينة. من شأن هذه النظرية أن تفسر لنا لماذا يفسح الرجال الطريق لأنفسهم عن طريق الانفصال أو الطلاق، لإقامة علاقة جديدة مع شريكة غالباً ما تكون أصغر في السن؛ خاصة عندما يتقدمون هم في السن؟ يُعد هذا " الربيع الثاني " الذي يُبدّل فيه الرجال ممن لم يعودوا من الشباب شريكاتهم المتساويات معهم في العمر بامرأة أصغر سناً، غالباً أمراً طبيعياً للغاية من هذه الناحية البيولوجية الارتقائية؛ لأن الرجال عن طريق ذلك يزيدون معدلات إنتاجهم مرة أخرى قبل فوات الأوان.

علق " كونراد لورنس " على ذلك بشكل دقيق للغاية بقوله: " نحن نمثل مرحلة الانتقال من القرد للإنسان." وهو ما يذكّرنا بقوة أنه علينا أن نقرر في وقت ما بشأن الاتجاه الذي نريد أن نتخذه حقاً. صحيح أن التصورات الحيوية الاجتماعية والحيوية الارتقائية تصف بالتأكيد من اين ننحدر وأين يوجد معظمنا: والإجابة هي أننا بالتأكيد في مفترق الطرق على حافة عملية التحول التي لا يمكن أن يشكّلها اي أحد أخر سوانا نحن. ولأن معظم الممثلين الذكوريين لجنسنا حالياً يُعدون أكثر من فقدوا فهمهم لدورهم المتوارث بشكل مفاجيء وغير مأخوذ في الاعتبار، فهم الآن وبشكل خاص يقفون أمام تحدي قبول هذا التحول الذاتي الضروري والتغلب عليه تدريجياً بقدر المستطاع. ولن يكون ذلك طريقا سهلا، خاصة لهؤلاء الذين ترسّخت في تصوراتهم بعمق

تلك الصور الذكورية الموروثة والمنقولة عبر الأجيال والتي لم تعد قابلة للتطبيق الآن.

كما أنه طريق سيؤدي بدوره تدريجياً إلى العبور داخل المراحل المتوالية للتحول الذاتي. إلا أن هذه العملية لا تحدث بشكل تلقائي للأسف؛ بل تحدث إذا أراد المرء حقاً أن يصبح الشيء الذي من المفترض أن يكونه، أن يكون رجلاً.

المحطة الأولى

الإخصاب : كان سريعاً وحالفه الحظ

إذا صح أن آباءنا يهبون لنا الحياة ليس فقط مزودة برابطة معينة من تركيباتهم الوراثية؛ بل أيضاً بتصور معين وتقاليد مألوفة مستوحاة من عائلاتهم الأصلية ومعطياتهم المادية والعاطفية والعقلية التي شكّلوها، فإن هذا الإطار اللابيولوجي والثقافي والاجتماعي والعقلي والمادي الذي يحدد فيما بعد طريقنا في الحياة - يكون متواجداً بالفعل قبل أن تبدأ عملية الإخصاب على الإطلاق. وبذلك يمكن أن تكون التركيبات الوراثية للولد الذكر مثلما يرغبون: فهذا الجزء الذي يحدد حياته متوافر بالفعل. حيث يتواجد هذا الجزء فعلياً قبل أن ينشأ، وهو يؤثر في صيغة تلك التصورات التي يتمناها الوالدان بشكل أكثر قوة إذا كان هو ما يُطلق عليه الطفل المنشود. كيف سيعيش فيما بعد الصبي المولود حديثاً، وما الخبرات التي سيكونها، ومدى رغبة والديه فيه وتقبلهما له كما هو، أي بوصفه صبي، وكيف سيصاحبانه في حياته، وكيف سيتكون عقله بعد الولادة بشكل خاضع للخبرة، كل هذا يتوقف بشكل جوهري عما إذا كان والداه يتمنيان ذكراً أم أنثى.

يخضع كون الجنين ذكراً أم أنثى حقاً إلى نوع الحيوان المنوي الذي يُلقح البويضة. حيث يحتوى السائل المنوي في المتوسط على حولي ثلاثمائة مليون حيوان منوي. ومن المفترض أن يكون هذا العدد كافياً نظرياً لإخصاب كل السيدات القادرات على الإنجاب في الولايات المتحدة مرتين. ويراقب أطباء الإنجاب والتناسل، منذ فترة على كل حال، سوء حالة إنتاج الحيوان المنوي عند الرجال في محيطنا الثقافي الذي يبعث على الخوف. حيث إن عدد الحيوانات المنوية في الرجال المولودين بعد عام ١٩٧٠ يقل بنسبة تصل إلى ٢٥٪ في السائل

المنوي، عن هؤلاء الرجال المولودين قبل عام ١٩٥٩. لذا يتم حالياً البحث بشكل مكثف عن أسباب هذا التطور، وتتسع دائرة الشك لتشمل منتجي المواد اللدنة مثل منتجات البلاستيك ذات التأثيرات الأستروجينية، وصولاً إلى المعوّقات الناتجة عن نمط الحياة التي تؤثر على القدرة الإنجابية عند الرجال وتتمثل في الكحول والنيكوتين والتوتر والملابس الضيقة وتدفئة المقاعد في السيارة. ولحسن الحظ لا تتوافر الأدلة على أن إنتاج الحيوانات المنوية التي تضم كروموسوم واي، تكون أكثر عُرضة للضرر من تلك الحيوانات التي تضم كروموسوم إكس حتى الآن. وتصبح مسألة الإخصاب مشكلة فحسب إذا كان السائل المنوي يضم عشرين مليون حيوان منوي في المليلتر الواحد.

ويتوقف فوز أي من هذه الحيوانات المنوية الكثيرة جداً بالسباق على عدة عوامل مختلفة، يبدو بوضوح أنها لا تتأثر بالأمور الخارجية عامدة. صحيح أن تلك التي تشتمل على الكروموسومات الأصغر واي أسرع إلى حد ما، إلا أنها تفقد قوتها أيضاً بشكل أسرع. وإذا تم تحديد الوقت المناسب للإخصاب بشكل دقيق عندما تصل الحيوانات المنوية للبويضة يصبح لديها إذن فرص جيدة جداً. وقبل ذلك التوقيت، وحتى بعده أيضاً، يكون ذلك الأمر أكثر سوءاً لأنها تموت بسرعة نظراً لكون خلية البويضة إما غير قابلة للتخصيب أو أن حيواناً منوياً آخر قام بتخصيبها بالفعل. ويبدو أن خلايا البويضة لديها القدرة على الانتقاء، إذ لا يسمح لكل حيوان منوي يصل إليها بالتلقيح. فحتى الآن لم يكتشف العلماء ماهية المعايير التي تتبعها تلك العملية الانتقائية. لكنهم نجحوا منذ وقت قصير في معرفة مادة جاذبة للبويضة، تجذب الحيوانات المنوية في مشوارها الطويل من عنق الرحم إلى المبيض بطريقة لا يمكن مقاومتها. تتمثل في عطر الزنبق. ومن الممكن أن يُقصد بذلك أن كل الحيوانات المنوية تتمتع بفرص جيدة في هذا السباق الضخم

للوصول إلى خلية البويضة المستعدة للتلقيح. حيث إن هذه الحيوانات المنوية تملك حاسة دقيقة جداً لرائحة الزنبق في شكل مستقبلات مناسبة على غشائها الخارجي.

وأياً كانت النتيجة التي يؤول إليها هذا السباق، وأياً كان ما يحدد أيضاً أي الحيوانات المنوية سيصل إلى البويضة وتسمح له بالتلقيح وتدعوه داخلها، وما الذي يحدث بعد ذلك، فالأمر يتشابه دائماً سواء كان هذا الحيوان المنوي يحمل معه كروموسوم إكس أو واي. حيث يُحدث أولاً ثقباً في الغشاء الخارجي للبويضة من خلال خليط من الإنزيمات المقسّمة للزلال والتي تحملها الحيوانات المنوية بوصفها جسيم طرفي في الجزء الأمامي من رؤوسها. بعد ذلك يسقط الذيل وتُترك القشرة الباقية في الخارج ثم تلج نواة الخلية وحدها داخل البويضة وتذوب مع نواة خليتها. يطلق علماء الأحياء على البويضة المخصبة بهذه الطريقة اسم الزيجوت أي اللاقحة. وهي تضم داخل نواة خليتها مرة أخرى مجموعتين من الكروموسومات المزدوجة، في كل منها كروموسوم يرجع إلى الأب وآخر من الأم. ومن خلال انقسام اللاقحة تنشأ بالتالي خلايا فرعية، تنقسم بدورها مجدداً إلى خلايا فرعية ثانية، وهكذا حتى تتكون كتلة من الخلايا تُعرف باسم خلية بلاستولية حيث تسيطر شروط أخرى على الخلايا الهابطة على السطح هناك عن تلك الموجودة داخل الخلية البلاستولية. وبسبب هذه البيئة المختلفة تظهر جينات وراثية محددة في الخلايا الخارجية بشكل أقوى وأخرى بشكل أضعف. وتبدأ أنماط الخلية المختلفة في مواصلة تطورها بطريقة مختلفة، كما تواصل تمايزها عن بعضها البعض.

إذا لُقحت البويضة بأحد الحيوانات المنوية الذي يضم كروموسوم إكس، تصبح كل من هذه الخلايا الجنينية حاملة لاثنين من الكروموسومات إكس، ويتطور منها جنين أنثى. أما اذا كان الحيوان

المنوي حاملاً لكروموسوم واي؛ فإنه ينتج من هذه التركيبة والمكونة من كروموسوم إكس وكروموسوم واي - جنين ذكر.

المحطة الثانية

الأشهر التسع الأولى : البقاء على قيد الحياة رغم الإعاقة

ظل علماء الأحياء، فترات طويلة، يعتقدون أن توافر نسخة مزدوجة من كل كروموسوم أمر ينشأ حقاً بشكل إجباري عن اندماج مجموعة كروموسومات كلا الوالدين. إلا أن هذا التجهيز المزدوج يبدو بمثابة الرفاهية الوراثية المجلوبة، لأن المعلومات الجينية لا تقرأها سوى إحدى مجموعتي الكروموسومات فحسب. لكنهم اكتشفوا بعد ذلك أن الخلايا الجينية المتطورة من الخلية الملقحة (اللاقحة) بإمكانها قراءة ونقل الجينات المتواجدة داخل مجموعتي الكروموسومات بشكل متبادل؛ أي تسلسل الحمض النووي المستخدم في تركيب بروتينات محددة سواء من كروموسوم الأب أو كروموسوم الأم. ودائماً ما تنشط داخل نواة الخلية تلك المادة الجينية التي تناسب بشكل أفضل المهام الموكلة لهذه الخلايا أو الأكثر صلاحية. ولا يُشكّل بالنسبة للخلية مكان هبوط هذا الجين المحدد لمجموعتي الكروموسومات - فارقاً. إلا أن الأمر السخيف يتمثل في حالة وجود كروموسوم واحد فقط بدلاً من اثنين، من تلك التي يمكن النقل عنها وحدها. عندئذ يجب على الخلية لاحقاً أن تأخذ ما يحويه هذا الكروموسوم من تسلسل للحمض النووي حتى لو كانت هذه المتواليات غير مناسبة.

يتضح مدى أهمية هذه الإمكانية الانتقائية حقاً في عدم حدوث أي تنحي للكروموسومات لدى الإنسان، يتم فيه تحول واحد من الاثنين وعشرين كروموسوماً جسمياً بشكل فردي وليس بشكل مزدوج. حيث تنتهي رحلة الأجنة التي يتعين عليها أن تواصل طريقها لسبب ما بتجهيز فردي فقط وليس بتجهيز مزدوج معتاد لأحد الكروموسومات داخل نواة خليتها - بالموت المحقق. والاستثناء الوحيد يُشكله هؤلاء الذين يتمتعون بكروموسوم إكس واحد فقط بالإضافة إلى كروموسوم واي الذي يحمل عدداً قليلاً جداً من الجينات بديلاً عن الكروموسوم إكس الثاني، أي ذكور.

حيث يشق هؤلاء طريقهم على الرغم من الإعاقة. لكن الحالة التي يصبحوا عليها والتي تتمثل في افتقادهم بشكل ما " لإطار بديل "، أي لكروموسوم إكس الفردي، تجعلهم أكثر عرضة للإصابة والعطب وأكثر حساسية للاضطرابات التي تحدث خلال تطور الجنين. لذا فإن الذكور هم الجنس الأضعف منذ البداية من حيث تركيبهم البيولوجي. وهو ما يتسبب في موت الأجنة الذكورية أسرع اذا طرأت أية صعوبات خلال التطور الجنيني. إذ تحدث عمليات الإجهاض تلك بوضوح بشكل مبكر للغاية، لدرجة أن الأمهات الحوامل في تلك الأجنة غالباً لا يلاحظن الأمر بالمرة. وهو الأمر الذي يثبت إحصائياً، فيما بعد، عند المقارنة بمواليد الإناث. ويُعد خير دليل على ذلك هو قلة عدد المواليد الذكور الذين ولدوا عقب فترة الاضطرابات الانتقالية خلال مرحلة انهيار الحكم في جمهورية ألمانيا الديموقراطية، لاسيما في الولايات الشرقية لجمهورية ألمانيا الاتحادية الحالية. ومن الواضح أن كمّاً كبيراً ولا يُستهان به إحصائياً من الأجنة الذكور الأكثر ضعفاً من الناحية التكوينية، لم يقو على البقاء حياً أثناء هذه المرحلة الانتقالية، ومن ثم لم يقو على تحمل الأعباء المصاحبة التي حدثت لكثير من الأمهات الحوامل.

وقد سبقت القابلات علماء الأجنة والمتخصصين في إحصائيات المواليد منذ وقت طويل، في معرفة الحقيقة التي مفادها أن الذكور أكثر عرضة للإجهاض من الإناث وأن المبتسرين من الذكور أكثر حساسية، وإذا حدثت لهم مضاعفات فإنهم يصبحون أكثر عُرضة للوفاة من الإناث.

إذا بحثنا عن الخصائص الجينية التي يواصل بها ممثلو الجنس الذكوري طريقهم بعد الإخصاب، فلا تكفي الإشارة إلى أنهم يملكون كروموسوم واي الذي ينقص أجنة الإناث. حيث تفتقر الأجنة الذكورية وجود كروموسوم إكس ثان المتوفر لدى أجنة الإناث. ونظراً لأن كروموسوم إكس يحمل كثيراً من الجينات التي تستخدم في كل الخلايا الجنينية من البداية، وليس هناك بديل للجينات التي لا تعمل بشكل مثالي

تماماً عن هذه الكروموسومات في الكروموسوم إكس الثاني؛ لذا تواصل الأجنة الذكورية شق طريقها بإعاقة واضحة تماماً من البداية وفي حالة فردية أيضاً. ومن الصعب تقدير ماهية الآثار المترتبة على بناء خصائص محددة. وبما أن أحد الكروموسومات إكس ينشأ من الأم التي تملك أيضاً من أبيها كروموسوم إكس ثان (بوصفه " إطار بديل ") فإن هذه الصفات تظهر بشكل أقل وضوحاً لدى الأم، لكنها تتضح في جد الطفل الذكر المعني في حالة انتقال كروموسوم إكس الخاص بالجد عبر ابنته إلى الحفيد. في هذه الحالة، فإن هذا الحفيد قد يشبه جده لأمه بالنظر لهذه الصفات أكثر من جده لأبيه.. ما أروع الهندسة الوراثية !

ويرجع أصل الكروموسوم واي بكل تكوينه الجيني الضعيف تلقائياً للأب ومن ثم إلى أبيه وهكذا. ولأنه يحمل هذه الجينات الوراثية التي تُستخدم في بناء الأعضاء التناسلية الذكرية وإنتاج هورمون التيستوستيرون في الخصية في المقام الأول، يسهل إيجاد تشابه في بلورة هذه الملامح الذكورية المحددة أكثر في خط الرجال. وهو الأمر الذي ينطبق بالفعل على كميات هورمون التيستوستيرون التي تنتجها خلايا لايدج البينية في الخصية للجنين الذكر المتطور والتي تُفرز في الدورة الدموية للجنين. قد تكون تلك الكميات أكثر أو أقل، وهذا الأمر - كما نعرف الآن - له تأثير شديد على التكوين اللاحق للصفات الذكورية النمطية الثانوية الجسدية والنفسية أيضاً. ومن حُسن الحظ أن هناك الكثير من الكروموسومات الأخرى التي تشترك في تشكيل الصفات الجسدية والتي تختلط مجدداً في كل جيل من مجموعة كروموسومات الوالدين بطريقة متنوعة. ومن حُسن الطالع أيضاً أن تبقى سمات أسرية وثقافية قوية بشكل كاف بعد الولادة لها بالتأكيد تأثير حاسم على عملية التحول إلى الرجولة .

وإلا لتعين علينا اقتفاء أثر أجيال المتأثرين بهورمون التيستوستيرون الذين لديهم سلوك رجولي قوي للغاية أو ضعيف؛ حتى نصل إلى أجدادهم القدامى والأوائل - قابيل وهابيل .

تتحد مستويات هورمون التيستوستيرون السارية في الأجنة الذكرية من خلال التركيبات الجينية الموجودة على الكروموسوم واي، بشكل جزئي فحسب. وهناك أيضاً عوامل من ناحية الأم تؤثر في بناء التيستوستيرون الجنيني: مثل تعاطي الكحول والنيكوتين والعقاقير والمخدرات وبالتأكيد أيضاً السموم الموجودة في البيئة. حيث يُشتبه في التأثير الضار لمادة الفثاليك وهي مادة لينة من معلبات البلاستيك تسبب تأثيرات مشابهة للأستروجين على عمليات وسطية لإنتاج التيستوستيرون أثناء التطور الجنيني.

ومن الممكن قياس مستويات التيستوستيرون المختلفة العلو في السائل الأمينوسي للأجنة الذكرية. حيث يُظهر الصبيان الذين ثبت لديهم قبل الولادة تركيزات عالية من التيستوستيرون في السائل الأمينوسي - قدرة واضحة على التوجه المكاني، فهم يحتاجون بشكل أقل إلى الاتصال البصري مع أمهاتهم ولديهم صعوبات أكبر في اكتساب اللغة. لكنهم في المقابل مفعمون بالحركة والحيوية. ويبدو أن الإفراز الغزير لهورمون التيستوستيرون أثناء التطور قبل الولادة يؤدي إلى إزاحة الطبول وآلات النفخ النحاسية في الفرقة الموسيقية داخل عقولهم إلى الأمام، ويُنحّي آلات الكمان والناي إلى الخلف.

المحطة الثالثة

الولادة : النفاذ للتو

نحن عادة ما نعتبر الولادة دائماً هي البداية الحقيقية للحياة ومن ثم للرجولة. لكن لا يأتي في الحقيقة أي ذكَر (وكذلك أيضاً أية أنثى) إلى العالم بوصفه ورقة بيضاء لم يُسطر فيها خط . حيث تكون المعالم، بل وفي مناحٍ عدة أيضاً، المعالم الحاسمة الخاصة بالتطور اللاحق قد تشكلت أثناء التسعة أشهر الماضية في صيغة عمليات نمو وتمايز تمت بالفعل حتى ذلك الوقت. فلا يجلب كل مولود جديد معه خصائص جسدية محددة قبل الولادة وشبكات عصبية ناشئة ومستقرة في مخه فحسب؛ بل يجلب كذلك خبرات معينة صُنعت قبل الولادة وترسخت داخله في شكل أنماط ربط الخلايا العصبية المناسبة، فهو يميز صوت أمه وكذلك صوت أبيه، إذا كان موجوداً، كما يُعد نبض قلب أمه أمراً معروفاً بالنسبة له شأنه شأن رائحتها.

فكل مولود جديد يكون قبل ولادته قد كوَّن خبرتين يتم حفظهما داخل ذاكرته بشكل ضمني، وهما اللتان تحددان توقعاته بعد الولادة: فقد كان مرتبطاً بشكل وثيق و" يرغب " لذلك في أن يظل مرتبطاً، كما أنه قد نما و" يرغب " في مواصلة النمو - بل يريد أن يتجاوز حدود قدراته ويُنوّعها وأن يصبح مستقلاً وحراً. ولا يدرك المواليد حديثاً أي شيء عن تلك الأمور، لكن هذه الخبرات والاحتياطات المتنامية تُعد بمثابة العلامات الإرشادية الحاسمة لتحديد الاتجاه الذي سيتخذه كلاهما سواء البنين أو البنات في طريقهم من الآن فصاعداً.

ليست عملية الولادة في حد ذاتها بالأمر الهين سواء بالنسبة للأم المستقبلية أو بالنسبة للطفل القادم للحياة. لذا يستغرق الأمر حوالي شهرين لاحقين؛ حتى يتعافى المخ من هذا الإجهاد العصبي مرة أخرى بشكل ما ويتواصل به نمو الخلايا العصبية خاصة في القشرة المخية

والارتباط مع خلايا عصبية أخرى. إلا أن أحداً لا يعرف ما إذا كان الصبيان يتغلبون على هذه المعاناة بشكل أفضل ويتعافون منها بشكل أسرع من البنات أم لا. لذا فمن الأفضل حقاً ألا يتمكن أحدهم من أن يتذكر هذه القفزة الأكثر صعوبة والأخطر على الإطلاق نحو الحياة، بينما لم تُكمل المجالات المسئولة عن ذلك في القشرة المخية - نضجها بعد.

ولا شك أن الأمر برمته سيكون أكثر سهولة إذا كان لدى الطفل أماً، والأفضل أيضاً أن يكون لديه أم وأب يترقبان وصول طفلهما بسعادة ويمكنهما تقبله بحب ورهافة حس وبدون تحفظات.

يُعد وجود علاقة ارتباط تمنح الأمان هو أهم " هورمون للنمو " يحتاج إليه كل مولود جديد لتطوره اللاحق. وإلا لن يجرؤ على الولوج إلى عالم حياته الجديد والغريب بوصفه مُستكشف ومُصمم صغير. وبدون تجربة هذه العلاقة التي تمنح السكينة، لا يمكن للمولود أن يُطور إحساس الثقة الذي يؤدي داخل المخ إلى عرقلة حالات الانفعال الشديدة وكبح جماحها. وسيصبح من السهل جداً بعد ذلك أن يتحول كل تعبير حسي وكل دفعة ترد إلى مخه سواء من العالم الخارجي أو من داخل جسده - إلى انفعال مبالغ فيه. فيظهر رد فعل المجالات الأقدم في المخ نحو ذلك، على شكل تنشيط لإفراز الخوف والهلع يصاحبه دوماً تنبيه لجهاز الضغط العصبي الخاص بالغدد الصماء. ولا يُعد الانتفاض والتأرجح المعبر عن الخوف الشديد والصراخ إلا علامات خارجية لمثل هذا النوع من ردود الأفعال الاضطرارية. بينما لا يمكن رؤية التأثيرات التي تحدث داخل المخ. حيث تحدث تقوية لكل أنماط ربط الخلايا التي تشارك في الأمر، كما يحدث إضعاف وقمع لكل الأنشطة العصبية التي تستخدم للحفاظ على حالة الفضول والوضوح والرغبة في التشكيل. وإذا استمرت هذه الحالات من التوتر لوقت أكثر طولاً، سيؤدي ذلك في المقام الأول إلى إعاقة نمو وبناء التشابك العصبي

وتوسعات الخلايا العصبية. ومن الممكن أن يُسفر ذلك لاحقاً عن قلة في عدد الشبكات العصبية المعقدة وإمكانيات الربط العصبي للخلايا.

إذا حدث موقف طارىء، يجب تنشيط ذلك في مخ المولود حديثاً أولاً وبشكل أساسي، وتدعيم ما يُؤمّن له البقاء على قيد الحياة .حيث يُعد بناء الهيكل والحفاظ على الوضوح والفضول في مثل هذه الظروف بمثابة رفاهية وأمر زائد. إذ يتوسع نطاق ما يضمن البقاء على الحياة في وقت الأزمة وتمثل أنماط ربط الخلايا الأكثر بساطة والأكثر ثباتاً في المخ. ولكي لا يحدث ذلك من البداية؛ فإن المولود الجديد يكون في حاجة إلى الشعور بالثقة. ولكي يتسع نطاق هذا الشعور داخل المخ فيتمكن من كبح جماح هذه الحالات من فرط الانفعال، يجب منح الطفل الفرصة لتكوين خبرة الشعور بالأمان والسكينة في هذا العالم. وهو الأمر الذي ينطبق على الصبيان والبنات على حد سواء. لكن إذا انطلقنا من أن الذكر المولود حديثاً أضعف تركيبياً وأنه جاء للعالم بفرقة موسيقية في مخه أكثر ارتفاعاً من حيث الصوت وأقل توافقاً نغمياً بسبب تأثيرات التيستوستيرون؛ فإن هذا الأمر ينطبق على المواليد الذكور بشكل خاص جداً.

المحطة الرابعة

الطفولة : إيجاد الدعم إلى حد ما

يمكن التعرف على مدى أهمية هذه العلاقات الترابطية التي تمنح الأمان والتي تنمو من خلالها الثقة من أجل مزيد من التطور في المخ وتحسين القدرات المُزوَّد بها كل طفل، من خلال مجموعة كاملة من الإجراءات الأمنية الوقائية الناشئة والتطورية التي تساهم في جعل بناء مثل هذه العلاقة القائمة على الاعتماد بين الطفل والأشخاص الأساسيين المعنيين له - يعمل بشكل طبيعى نسبياً. ويندرج بين ذلك الحالة التي يعرف فيها المولود والدته بشكل جيد حقاً. فقد كان يسمع ضربات قلبها من داخل الرحم بالفعل، وبعد ذلك سمع صوتها وغناءها وضحكها. كما أنه يعرف عطرها والنكهات المنبعثة من غذائها، لأنه تمكن من تذوق ذلك في السائل الأمينوسي. وطالما كانت الأمور تسير على ما يرام بالنسبة للأم أثناء الحمل، كان جدار البطن يسترخي وبالتالي يتمتع الجنين بحرية أكثر في الحركة، وبعد ذلك كان تنفسها يهدأ وكذلك ضربات قلبها، كما تتمدد أنسجتها وأوعيتها وبذلك يتغذى طفلها الجنين بشكل ممتاز. وربما كانت الأم المستقبلية تغني أو تسمع موسيقى وربما كانت تقوم بنزهة أو لعلها تناولت وجبة شهية منحتها هذا الشعور بالراحة. ولأن الأمور كانت تسير معها على ما يُرام، فإن الوضع كان كذلك أيضاً بالنسبة لجنينها.

لقد سرى هذا الشعور الإيجابي في مخ الجنين مع تجديد نموذج نشاط محدد، وربط هذا النموذج العاطفي آلياً مع كل النماذج الإدراكية التي تسللت في هذا الموقف من الأم أو من الخارج - إذا صح التعبير - إلى مخ الجنين: الغناء والموسيقى والتأرجح والمداعبة أو حتى نكهات معينة في السائل الأمينوسي. ولأن هذه العمليات الإدراكية مرتبطة بالفعل قبل الولادة بشعور طيب؛ فإن الطفل يسعد بعد الولادة في كل مرة يتعرف فيها ثانية على غناء والدته وموسيقاها وتأرجحها

ومداعبتها وصوتها أو رائحتها. فلا تُعد هذه الأمور مألوفة له فحسب؛ بل إنها تجعله في حالة مزاجية جيدة. وإذا كان هذا ينطبق على الاثنين؛ فإن ثمة صدى لهذا الشعور لا يجعل الاثنين يتأرجحان مع بعضهما البعض فحسب بل يُقوي الثقة بينهما في مقدرتهما على التأرجح سوياً.

إزداد ضخ هورمون الببتيد والأوكسيتوسين بشكل إضافي خلال عملية الولادة؛ حتى وصل خلال الدم إلى مخ كل من الأم والطفل. حيث تم تنشيط شبكات عصبية محددة أدت إلى تقوية هذا الشعور بالثقة بشكل إضافي. ويتكون نفس هذا الهورمون وهورمون آخر يعرف باسم برولاكتين بشكل متزايد بعد الولادة في كل رضاعة. ويصل كلاهما إلى مخ الأم ثم ينتقلان بدورهما إلى الرضيع عن طريق لبن الأم، فيُنشطان كذلك هذه الشبكات الباعثة للثقة بوصفهما هورمونات ترابط. أما إذا وُلد الطفل ولادة قيصرية ولم يتم إرضاعه طبيعياً، فلا يوجد تعزيز للروابط الهورمونية. ويصبح البديل الأخير الملحق بيولوجياً في هذه الحالات هو ما يُعرف باسم جاذبية الطفل. حيث تبعث العيون الكبيرة وابتسامة الرضيع وحاجته للمساعدة لدى الأم شعوراً يعمل مثل الغريزة ويحثها بشكل طبيعي على التوجه للطفل ورعايته.

يحدث كل هذا بالطبع مع الأم البيولوجية بشكل أكثر سهولة وعلى أفضل حال. لكن المواليد الجدد من البشر يتمتعون بقدر من الانفتاح ويرغبون بشدة في تكوين علاقة وطيدة مع أم بديلة إذا لم تكن الأم الوالدة موجودة. وينجح الأب أيضاً في تكوين علاقة ترابطية توفر هذا النوع من الأمان. تترسخ في مخ الطفل الحاجة المتزايدة للقرب والطمأنينة من خبرات ما قبل الولادة في شكل تركيبات شبكية عصبية مميزة تُعرف باسم " نظام الربط ". وفي كل مرة يتم تنشيط هذا النظام يبحث الطفل عن الاهتمام والقرب.

وإذا لم يكن في الإمكان إشباع هذه الحاجة؛ يحدث داخل مخ الطفل الشيء نفسه الذي يحدث داخل عقولنا نحن البالغين الكبار دوماً، فإذا لم

نحصل على ما نحتاجه من أجل البقاء ومواصلة تطورنا، يؤدي ذلك بنا إلى التوتر والانفعال المفرط والخوف والهلع والقلق.

وبعد ذلك يحدث تحول في مفتاح التشغيل داخل مخ الطفل بشكل ما - بدءاً من نمو وصلات الخلايا العصبية وتكوين التشابك العصبي وصولاً إلى تشغيل سريع.. ومن الانفتاح ومتعة الاكتشاف والرغبة في التشكيل والتركيب، إلى التخلص من حالة الطوارىء واستعادة التوازن المفقود والبقاء المجرد على قيد الحياة. حيث ينقطع قبل الأوان ذلك التزود بنصيب ضخم من الشبكات والروابط العصبية الذي يحدث بشكل طبيعي أثناء العام الأول للمخ خاصة في القشرة. ويتم عوضاً عن ذلك تمهيد وترسيخ كافة العلاقات التشابكية في المقام الأول والتي من شأنها أن تُؤمّن للطفل بقاؤه على قيد الحياة في هذا الموقف الخطير والمُهدد لحياته.

وكما أكدنا بالفعل فإن المخ يصبح على الشكل الذي يُستخدم به. وتتوقف كيفية وهدف استخدام طفل صغير لمخه على مدى أهمية شيء ما على وجه الخصوص بالنسبة للطفل المعني. فعند الشعور بعدم الأمان يكون الهدف هو استعادة الأمان، وعند الخوف يكون استعادة الثقة، وعند التهديدات يكون العثور مجدداً على الطمأنينة هو الشيء المهم. ويفقد الفتيان الصغار توازنهم بوجه عام بشكل أسهل من الفتيات وذلك بسبب ضعفهم التركيبي. كما تظهر ردة فعلهم في مثل هذه المواقف في المتوسط بشكل مختلف وأكثر حدة من الفتيات بسبب اندفاعهم الأكثر قوة بعض الشيء والذي يرجع إلى تأثيرات هورمون التيستوستيرون في المرحلة الجنينية والتي جاء بها إلى العالم (حيث تأتي لديهم الطبول وآلات النفخ النحاسية في مقدمة الفرقة الموسيقية المخية).

ولا يمكن تجنب حدوث مراحل قصيرة من الشعور بالتوتر والانفعال المفرط وعدم الأمان والخوف والتهديد. وتُعد هذه المراحل

ضرورية كمحركات للنمو. فهي تسري تحت الجلد وتبعث مشاعر سلبية وتعطي خبرات ومعايشات محددة. وتتمتع العمليات الإدراكية المصاحبة لذلك بأهمية خاصة. حيث تُجبر الطفل على الانفعال. وإذا أثبت ذلك صلاحيته وقدرته على إزالة المشكلة؛ فإنه يصنع خبرة خاصة مهمة. يهدأ ذلك الاضطراب الذي نشأ داخل المخ باستمرار، كلما نجح الطفل في شيء مثل هذا؛ حيث يتم تنشيط ما يُطلق عليه مركز المكافأة والذي يؤدى إلى إفراز متزايد من هورمون دوبامين وإندورفين. إذ تحرص هذه المواد ذات الخصائص الطواعية عصبياً، على زيادة تكوين الزلال من كل الخلايا العصبية التي تحصل على هذا السيل من هورمون دوبامين من خلال تنشيط المستقبلات المناسبة. ليستخدم هذا الزلال بغرض بناء وصلات الخلايا العصبية وبناء شبكات عصبية جديدة ودعم الوصلات العصبية المتشابكة.

عندما يتغلب الطفل على تحد جديد بنجاح؛ فإن هذا يؤدي وفقاً لذلك إلى تشغيل وترسيخ كل وصلات الخلايا العصبية والشبكات التي تُنَشّط بالمخ. وكلما تكرر نجاح الطفل في التغلب على تحد مثل هذا كلما كان أفضل. وما كان صعباً في البداية ويمثل تهديداً، يصبح الآن أسهل وأكثر إثارة وتشويقا. فيتحول الخوف الأصلي إلى سعادة وحماس وتنمو الثقة بالنفس، وبالتالي الرغبة في المزيد من الاكتشافات والسعادة بالعمل الذاتي والتشكيل. ويبدأ الطفل الآن بشكل أكثر في البحث عن مثل هذه الفرص التي يمكنه فيها معايشة هذا الشعور من جديد. وإذا تأملنا الموقف بشكل موضوعي؛ فإن هذا يبدو كما لو أنه يريد دائماً أن يثبت لنفسه أنه قادر على فعل كل شيء. لذلك يكتشف كل طفل تدريجياً عالمه الخاص، ويكتسب خبرة جديدة الواحدة تلو الأخرى، وتزداد قدراته شيئاً فشيئاً دوماً مع كل تحدٍ تغلب عليه بنجاح. وبذلك يُشبع احتياجه الأساسي للنمو وتطوير قدراته والاستقلالية والحرية.

يقع الطفل حتماً، عاجلاً أم آجلاً، في موقف تتخطى فيه مساعيه الاستقلالية الحدود التي يكون معها الأشخاص الأقرب له في العلاقات

الإنسانية على استعداد لتحمله. ويحدث ذلك للفتيان مبكراً بعض الشيء عن الفتيات؛ وهو ما يرجع إلى اندفاعهم الأقوى الذي يصاحبهم. وتبدأ علاقة الارتباط التي تقدم الأمان في فقدان مصداقيتها بسبب التحذيرات المتكررة دائماً والتعليمات والحدود والشروط التي يضعها الوالدان بشكل أكثر وضوحاً دوماً ورفضهم واعتراضاتهم.

والآن يزداد الأمر صعوبة، لأن كل صبي صغير يقع لأول مرة في حياته في مأزق يتعين عليه أن يحله بشكل ما. ونظراً لصعوبة حل هذه الإشكالية، فإنه يواجه هذا المأزق خلال مشوار حياته المتواصل دوماً وأبداً في شكل جديد. ويتمثل ذلك المأزق في أنه من الصعب إشباع كلا الحاجتين الأساسيتين؛ لا سيما الاحتياج للارتباط والقرب والطمأنينة من ناحية - والنمو وتطوير القدرات والاستقلالية والحرية من ناحية أخرى.. في الوقت نفسه؛ حيث يدفعه سعيه للاستقلالية بشدة إلى الخروج من دائرة الارتباط في حين يعوقه احتياجه للارتباط بشدة أيضاً عن التطوير الحر لقدراته وإمكانياته.

يحدث كل هذا في الحقيقة عن دون وعي. ويقع في هذا المأزق كل من الفتيان والفتيات على حد سواء. فيظهر ذلك في شكل شعور بالاضطراب الداخلي والانفعال الذي يحدث دوماً إذا لم يكن في الإمكان إشباع أي من تلك الاحتياجات الأساسية. ولأن هؤلاء المستكشفين والمصممين الصغار في حاجة ملحة لأمان القبول والانتماء والارتباط مع الأشخاص المهمين بالنسبة لهم، فإنهم يحاولون في بادئ الأمر أيضاً أن يفعلوا كل شيء يساهم بشكل ما في أن يحوزوا على رضا هؤلاء الأشخاص وقبولهم أو أن يدركوا وجودهم على أقل تقدير. وسواء كان هؤلاء الأشخاص المعنيين والأكثر أهمية بالنسبة لهم هم في الأساس الأم أو الأب أو أعضاء أخرين من الأسرة أو أخوات أو أجداد أو أصدقاء من المرحلة العمرية نفسها، من مجموعة المعارف - فإن الأطفال يصبحون دوماً على استعداد لرؤية ما يراه هؤلاء الأشخاص

مهماً جداً بنفس القدر من الأهمية. ويسعى هو أو هي بأفضل ما أوتي من قوة لتحقيق تصوراتهم وتوقعاتهم وأمانيهم.

أما تحديد التوقيت الذي يقع فيه الطفل رهن هذه الأزمة التي سبق وصفها، فهو أمر يصعب تقديره في الحالة الفردية. وقد يمكن توقع هذا التوقيت اعتباراً من نهاية العام الأول. حيث يصل بناء توسعات هائلة من التشابكات العصبية في مخ الطفل خاصة في القشرة الخارجية - إلى الحد الأقصى. ويؤدي ذلك التركيب المنسحب على الاستخدام للأنماط الترابطية والوصلات المحددة جداً بعد ذلك - إلى تشغيل شبكات عصبية نشطة وتثبيتها بشكل أكثر قوة دائماً. ومن ثم إلى إزالة شبكات أخرى لا تُستخدم أبداً أو نادرة الاستخدام لهذه القدرة الترابطية الزائدة التحميل ثانية. وهكذا يبدأ بعد العام الأول على وجه الخصوص تكوين الشبكات العصبية المسئولة عن التحكم في كل العمليات الأكثر تعقيداً في القشرة الدماغية من خلال استخدام كل منها وما يقابله من مدى تكرار نشاطها. ومن تلك اللحظة لا تصبح متوقفة على الطفل فحسب طريقته وهدفه من استخدام مخه في نطاق أكثر قوة دائماً، وما يُجربه، وما يهتم به، وإلام يسعى، وما يتعلمه من كل ذلك، ويترسخ كخبرة جديدة في مخه وأنشطته الخاصة التي تحددها عوامله البيولوجية حتى الآن؛ بل في كل ما هو مهم وذي معنى بالنسبة للأشخاص الكبار المعنيين له الذين يشعر تجاههم بالارتباط والذين يمنحونه الأمن والطمأنينة.

ومن خلال محاولة الصبيان الصغار تحقيق توقعات وأمنيات وآمال كل الأشخاص الذين يشعرون أنهم مرتبطون بهم؛ فإنهم يأخذون عنهم أيضاً تصوراتهم التي كونوها في الحياة وما هو مهم وذا معنى لهم. إلا أن هؤلاء الأشخاص المعنيين يكونوا قد شكّلوا الآن هوية جنسية محددة لأنفسهم بشكل ما وإدراك للأدوار الممثلة والمدركة عما هو " ذكوري " وما هو " أنثوي " وذلك لأنهم أكبر سناً. وبناء عليه فهم يتوقعون من الفتى الصغير أن يفعل ما يرونه مهماً بالنسبة للصبية وما يتناسب في أعينهم مع

صبي. وهو ما يجب أن يكون مختلفاً عما هو متوقع من الفتاة: فبمجرد أن يبدأ الفتى في فهم ذاته وكونه صبياً وليس فتاة، تصبح الأشياء التي يعتبرها الأشخاص المعنيون له سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً مهمة بالنسبة للجنس الذكوري، ذات أهمية بالغة له أيضاً. لذلك يبدأ كل فتى بشكل تلقائي في تحديد هويته وفقاً للتصورات والمهام المعرفة بمسمّى " رجالي " والمنوطة بهؤلاء الأشخاص الذين يشعر تجاههم بالارتباط. ويعتبر الطفل ما ينتظره هؤلاء الأشخاص منه أمراً مهماً جداً؛ لأنهم يتمتعون بأهمية كبيرة بالنسبة له. وفي أثناء محاولته تحقيق تلك التوقعات فإنه من الآن فصاعداً لا يستخدم دماغه ويشكلها بالطريقة التي كانت لتحدث إذا كان فتاة. وهكذا يتكون لديه مخ مختلف؛ لأن اكتساب خبرات أخرى عن تلك التي تحدث مع الفتاة أصبح الآن أمراً مهماً جداً وبشكل متزايد، وحيث إن هذه الخبرات الأخرى تترسخ في دماغه في شكل شبكات ربط عصبية محددة.

تسير عملية اكتساب فهم محدد للأدوار بحسب الجنس وما يصاحبها من تكوين بنية مخ الطفل تتناسب مع هذا الفهم، على ذلك المنوال منذ قديم الأزل في كل جيل وتُعاود البدء مجدداً. ويتعلق الأمر هنا بعملية ذات تنظيم ذاتي يتطور أثناء مسارها كل صبي بدءاً من اللحظة التي يدرك فيها أنه ذكر بالشكل الذي يتوقعه أعضاء الجماعة التي يشعر أنه مرتبط بها. لا يمكن تجنب هذا التطور إلا إذا لم يكن هناك فوارق منصبة على الجنس داخل هذه الجماعة أو أن الصبي المعني لا يدرك انتماءه الجنسي أو يرفضه أياً كانت الأسباب. وطالما أن الحال ليس كذلك، فإن الفتيان الصغار يبحثون عن كل شيء يُعد " رجالي " في أعين الأشخاص المعنيين لهم، ليكتسبونه ويُشكلوا هوية ذكورية مناسبة كما لو أن لهم قرون استشعار دقيقة.

إن تشكيل هذه الهوية الذكورية إذن ليس عملية سلبية تقتصر في مسارها على نقل تصورات محددة لتوزيع الأدوار فحسب. بل تُعد بلورة هوية ذكورية خاصة لأي طفل بمثابة عملية تكوين نشط للذات

يقوم بها الطفل بنفسه. وهي عملية مؤلمة وتنطوي على كثير من الخسائر بالنسبة للفتيان، أكثر مما يمكننا أن نتخيله. حيث يكون مخهم النامي قد تكيف بالفعل على بنيته الداخلية الخاصة وطريقة عمله، التي تتمثل في أنماط شبكات الربط العصبية والوصلات بين الخلايا العصبية؛ أي أنه تأقلم مع كل شيء كان مرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً حتى ذلك الوقت. وهو ما كان يتمثل في بادىء الأمر طوال فترة نموه وهو جنين قبل ولادته ثم في حياته التالية وفي كل لحظة في جسده وكل ما يدور ويحدث لهذا الجسد - سواء كان له علاقة بالمخ أم لا. حيث أدى كل شيء كان يصل إلى المخ على شكل إشارات من الجسد، إلى بناء نماذج انفعالية مميزة داخل الشبكات العصبية المشكّلة في المخ. وكلما تكررت نشأة هذا النموذج الانفعالي المحدد كلما زادت قوة تسيير الروابط الشبكية العصبية المشاركة وثباتها. فقد تشكلت داخل المخ تصورات مترسخة تركيبياً ومعقدة من نماذج الإشارات الصادرة من الجسد (مثل نموذج رد الفعل والاستجابة الذي ينتج في المخ) بصورة متزايدة جداً.

عندما واصلت الأعضاء الحسية، فيما بعد، إرسال نماذج انفعالها التي نشأت عن عمليات إدراكية محددة بالمخ (القشرة المخيه الحسية) تشكلت هذه التعبيرات الحسية بوصفها ممثلاً عن الخبرات الحسية المعنية المصنوعة في المخ، وارتبطت بنماذج الاستجابة ورد الفعل تجاه العملية الإدراكية المقصودة. وبعد ذلك عندما دخل الفتى المستمر في النمو، في علاقة مع والديه ومع المزيد من الأشخاص الآخرين، ترسخت خبرات العلاقات تلك في مجالات أعلى وأكثر تعقيداً على الإطلاق في الفص الأمامي للمخ في شكل ما يُعرف باسم التمثلات الفوقية.

والآن إذا حاول صبي صغير أن يصبح على الشاكلة التي يتوقعها منه الأشخاص المعنيون له، فمن الممكن أن يتحول الشيء الذي تم تخزينه

بهذه الطريقة في مخه حتى الآن إلى مشكلة. لأن هذه التصرفات والقناعات التي يتخذها أشخاص آخرون لم تعد في أغلب الظن مناسبة تماماً إلى الخبرات الأقدم التي صنعتها الخبرات البدنية الخاصة والعمليات الإدراكية. وهكذا تنحصر على سبيل المثال الحاجة إلى الحركة في إطار الإجراءات التنظيمية المناسبة أو في المثل الأعلى الذي يشكله البالغون بصورة قوية نوعاً ما. حيث يتم قمع الدافع الموجود من البداية بالفعل في وضع الجسد بأكمله في الموضع الذي يجعله مُعبِّراً عن حالته الخاصة بشيء من الوضوح. ويتم التحكم في مشاعر الخوف والألم إلى جانب مشاعر السعادة والمرح المبالغ فيها، عند التعايش مع آخرين، بشكل متزايد .

وبهذه الطريقة يتأقلم كل صبي صغير على مدار طفولته، مع عالم تصورات وسلوكيات الكبار الذين ينشأ معهم. وبعد ذلك يتوجه وهو شاب بشكل متنامي إلى الطرق الفكرية والسلوكية لأقرانه من جماعة أصدقائه المتساويين معه في السن الذين ينتمي إليهم أو يحب الانتماء إليهم. ليبتعد خلال مرحلة التكيف هذه دوماً عما كان يُشكل تفكيره وشعوره وسلوكه بصورة أولية عندما كان طفلاً صغيراً دون أن يلحظ: ألا وهو الخبرة البدنية الخاصة والخبرة الحسية الخاصة. فيعتبر جسده واحتياجاته المتنامية في تطوير قدراته عائقاً؛ لذا يتم قمعها وحصرها لأنها تقف حائلاً أمام احتياجه الشديد للانتماء والاعتراف وتنمية الهوية وتنوع الذات.

ويُعد الضغط صوب مثل هذا النوع من الاغتراب، وتحول الجسد إلى أداة، ذا صبغة أقوى في بعض الثقافات وربما يكون أقل في ثقافات

أخرى عما هو لدينا. إلا أنه ليس هناك صبي واحد ينمو في جماعة بشرية لديها تصورات محددة عما يجب أن يكون الصبي عليه ليصبح عضواً ذكورياً مقبولاً، قادراً على الإفلات بوجه عام من هذ الضغط. ويُعد هذا الاحتياج تحديداً المتمثل في الرغبة في الانتماء بأي شكل، هو المفتاح لفهم عملية التكيف المميزة هذه، التي تدفع الصبيان بوجه خاص إلى فصل شعورهم عن فهمهم وفصل جسدهم عن مخهم.

ولا يزال الخوف بكل لسف يُعد بمثابة الباعث والمحفز الأساسي على التأقلم المتواصل مع هذه التصورات الخاصة والنماذج التي تحكم السلوك في التراكيب السائدة داخل كل جماعة - سواء كان هذا الخوف من عقوبة مهددة أو الحرمان من المكافأة التي تتمثل في الاهتمام والتقدير. وكلما نجح أحد الصبية في التصرف بشكل يخفف من حدة الخوف، تترسخ داخل مخه الروابط العصبية النشطة وتمهد طرقها (بغرض تجنب العقاب أو الحصول على مكافأة). هكذا يتعلم كل صبي، منذ وقت مبكر بالفعل وبشكل مستدام أيضاً، كل شيء يتوقف عليه التعايش بأقل قدر ممكن من الإزعاج داخل جماعته.

وينجح كذلك ما يُعرف بتعلم الاستجابة أو المحاكاة بفاعلية لكن بشكل أكثر خفاءً. وذلك على العكس من تعليم الترويض دون أن يُدرك الضالعون في ذلك. فقد اكتشف باحثو المخ منذ سنوات قليلة فقط ما يُسَمَّى بخلايا الأعصاب المرآتية في القشرة الدماغية قبل الحركية للقرود التي تُستثار دوماً عندما يراقب قرد قرداً آخر في مسارات حركية محددة. ويبدو أن قدرة الأطفال على تكوين طرق سلوكية تمت

ملاحظتها من خلال بناء نموذج انفعالي خاص يُظهر السلوك المُلاحَظ تتكون مبكراً بالفعل. حيث يستنبط الأطفال بالطريقة نفسها من خلال ملاحظة سلوك الأشخاص المعنيين لهم، كيفية إدراك العالم وتقييمه وكيفية التحرك داخله. لذا يُشكّل هذا التعليم عن طريق المحاكاة قاعدة لإعادة تقديم نماذج إدراك وتقييم وسلوك من جيل لآخر.

يتعلم الصبية بسرعة شديدة، وبشكل فعّال للغاية، كيف يتعين عليهم أن يتصرفوا من أجل التكيف مع الجماعة التي ينمون داخلها عن طريق هذه الانعكاسات المرآتية لسلوك من يعتبرونهم قدوة، التي تدعمها في الأغلب إرشادات وتنظيمات إجرائية مناسبة. وتظهر هذه التصرفات المكتسبة من خلال انعكاس ومحاكاة بشكل أكثر وضوحاً عند مراقبة الصبية الصغار في حضور شخص ممن يعتبرونه قدوة أو مثلاً أعلى له تأثير خاص عليهم. حيث يتضح حينئذ كيف يجتهدون بشدة لمحاكاة الأسلوب الجسدي لهذا المثال المثير للإعجاب وإشارات يده ووجهه. ويمكن أن يتمثل ذلك المثل الأعلى في الأب، وكثيراً ما يتمثل أيضاً في الأخوة الأكبر سناً بعض الشيء أو في رفاق اللعب، وليس نادراً أن يكون هو بطل ذَكَر من السينما أو التليفزيون. ويظهر اكتساب الصبية لمواقف فكرية محددة لتلك النماذج وتصوراتها بشكل أقل وضوحاً، لكن يمكن التعرف عليه في البداية على الأقل من خلال التعبيرات اللفظية والتعليقات. حيث يتم استرجاع هذه الأفكار داخل مسار نموهم المتواصل وفي تفكيرهم الخاص بشكل دائم، كما أنها تتكرر باستمرار؛ حتى يتم تمهيد النماذج الانفعالية العصبية المنشّطة وترسيخها بشكل جيد للغاية لدرجة تجعلها متوافرة لهذا الصغير الذي ينمو - بوصفها متتالية متشابهات راسخة بنيوياً

وتصورات داخلية لكي يستقي منها التوجهات والمواقف الفكرية الأساسية، ويُكوّن توقعات ذاتية للانطباعات الجديدة والخبرات.

بدءاً من العام الرابع تقريباً، يمكن أن نلاحظ كيف ينقل الصبية كل الوسائل الاستراتيجية عن النماذج الذكورية التي يطبقونها بغرض تنظيم حالتهم العاطفية. يندرج ضمن ذلك إخفاء المشاعر وكذلك الإظهار المبالغ فيه للملامح العاطفية وأشكال التعبير الحركية. ويتعلم الأطفال بشكل أفضل في وجود هذه النماذج - السيطرة على مشاعرهم أو استخدام وسائل تعبيرية عاطفية محددة للوصول إلى أهداف بعينها. ويتغلغل الوضوح الفطري للتعبير العاطفي الطفولي، الآن وبشكل أقوى، داخل عالم المشاعر الخاص بالطفل. حيث يؤدي ذلك في الثقافات الغربية على وجه الخصوص إلى تزايد انفصال المشاعر التي عَبَّرت عنها إشارات اليد وملامح الوجه والمشاعر التي تُدرك ذاتياً حقاً. هكذا يتم التحكم في المشاعر الخاصة بشكل أقوى ويتم فصلها عن الإحساس الجسدي. ويحدث هذا أيضاً مع الفتيات، لكن في وجود نماذج قدوة أنثوية أخرى.

المحطة الخامسة

الشباب : شق الطريق بغناء وقوة تحمل

يُعد التحول من مرحلة الطفولة إلى سن الشباب أمراً سلساً؛ حيث يتواصل الكثير من عمليات تشكيل الذات التي كانت قد انتهت بالفعل في مرحلة الطفولة لدى الصبية الصغار. إلا أن تلك العمليات تواصل التمايز وتكتسب ملامح وتظهر أكثر وضوحاً على المستوى السلوكي ومستوى التكوينات الداخلية والقناعات والتصورات. وتتحول المسارات العصبية الممهدة والمحددة وفقاً للجنس والتي كانت في البداية دقيقة للغاية ومتفرعة بكثرة داخل مخ الصبية الصغار - إلى شوارع ممهدة وربما أيضاً إلى طرق سريعة يسير عليها الصبيان الأكبر سناً حتى الدخول في مرحلة البلوغ بشكل أكثر أماناً وبدون أخطاء في أغلب الأحوال. وتتحدد الاتجاهات التي تسير فيها هذه الشوارع والطرق السريعة من خلال الخبرات المصنوعة أثناء الطفولة المبكرة بدرجة أقوى كثيراً مما كان من الممكن أن يتصوره معظم الآباء آنذاك. هنا يتوقف الأمر في المقام الأول على تجارب البحث عن الدعم لدى الأشخاص الأساسيين المعنيين للطفل. فقد كانت الحاجة للارتباط بهؤلاء الأشخاص قوية لدرجة أن الصبيان كانوا على استعداد لتقييم كل ما يُمثل أهمية بالنسبة لأنفسهم على أساس ما يعتبره هؤلاء الأشخاص ذا قيمة.

هناك شيء آخر يتمتع بأهمية لدى الصبيان الذين أصبحوا أكثر أماناً بعض الشيء الآن في مرحلة الشباب؛ ألا وهو ما يفعله ويقوله صبيان آخرون ونماذج ذكورية أخرى لا تنتمي لدائرة الأشخاص الأساسيين المهمين للطفل. وبذلك يقع هؤلاء الصبية الذين أصبحوا أكبر سناً بعض الشيء - مجدداً في المأزق القديم للحاجتين الأساسيتين اللتين يصعب

إشباعهما سوياً في الوقت نفسه. لكنهم هذه المرة لا يقررون لصالح الارتباط المألوف، ويتخلون عن نموهم المستقل بوصفهم مسكتشفين للعالم منفتحين على كافة الجوانب، وبوصفهم مُشكّلين لهذا العالم أيضاً - وهو ما يُعد معياراً مناسباً حقاً لفصل مرحلة الطفولة والشباب عن بعضها البعض. حيث يختار الفتيان هذه المرة الاستقلالية؛ حتى لو أدى ذلك إلى صراعات مع الأم والأب أو أشخاص آخرين يمثلون أهمية حتى ذلك الوقت. وهم يفعلون الآن، وبشكل متزايد، ما يبدو لهم مهماً وذا قيمة حتى لو عَمَّ الغضب في البيت من جراء ذلك. حيث أصبحوا الآن يجدون الدعم داخل أنفسهم بفضل كفاءاتهم المتنامية والمعرفة التي خزنوها بالفعل والقدرات المكتسبة في تلك الأثناء، وإذا لم يكن ذلك الدعم كافياً، فإنهم يجدونه فيمن يماثلونهم في الفكر داخل مجموعات الفتيان المنتمين إليهم حالياً وفي الجماعة التي يشعرون بينها بالأمان والطمأنينة .

وكلما قلت الثقة بالنفس التي حصلوا عليها في عائلاتهم، خلال بحثهم عن الدعم ، كلما دفعهم ذلك بشكل أكثر قوة لمحاولة التميز داخل الجماعات التي تُقدم لهم هذا الدعم الجديد، واكتساب تصورات وسلوكيات أعضائها، واستخدام مخهم بالشكل المأمول أو المتوقع منهم أن يستخدمونه به. وتتميز هذه المرحلة بعدم الرغبة في أن تكون لهم علاقة بالفتيات، ومع أي شيء يفعلنه أو يجدنه مهماً. ولن تبعد أي اهتمامات وانشغالات وسلوكيات بين الجنسين بهذه الطريقة سوى هذه المرحلة. ولحسن الحظ تأتي بعد ذلك مباشرة مرحلة البلوغ التي تُقرّب ثانية بين الفتيان والفتيات بشكل أكبر.

إلا أنه قبل ذلك - أي قبل مرحلة البلوغ بقليل - يصبح بعض الصبية ممن وجدوا الدعم الكافي في أنفسهم، وداخل جماعة أقرانهم أحياناً، متميزين بالانفتاح الشديد والحساسية لشيء لا يكاد أحد يتوقعه منهم في هذه السن، وهو البحث عن المغزى. حيث يبدأ هؤلاء الصبية في استخدام قرون استشعارهم الدقيقة لاستطلاع ما قد يكون مناسباً كي يمنح حياتهم معنى. الآن لم يعد يسعنا سوى أن نأمل ألا يقع هؤلاء الصبية تحت سيطرة المشعوذين والمخادعين، أو يقعوا في أسر العوالم الافتراضية التي تصنعها ألعاب الكمبيوتر التي يملكونها. فهم يبحثون عن مهام يمكنهم أن ينموا من خلالها وعن جماعات يشعرون فيها بالطمأنينة. ولكنهم يظلون في حاجة إلى نماذج قدوة من بين البالغين كي يدعمونهم في هذه المرحلة على سبيل المساعدة التوجيهية، حيث إنهم مازالوا يجهلون ماهية تلك المهام وما يميز هذه الجماعات. وهو ما لا يمكن أن يقوم به أقرانهم في السن. حتى الوالدان، اللذان يعتبران إنجاز الواجب المدرسي وحمل سلة القمامة إلى أسفل مهاماً يجب أن ينمو الابن عليها، لا يصلحان لهذا الدور أيضاً.

مرحلة البلوغ : اهتزاز شديد وفرز جديد

ليست مرحلة البلوغ هي أصعب المراحل، لكنها غالباً ما تكون أكثر المراحل الانتقالية اضطراباً وتأثيراً في مسار حياة الرجل؛ حيث يتغير جسده فجأة ويفيض على مخه سيل من الهورمونات الجنسية المتزايدة، كما ينتهي مجال الطفولة والصبا الذي كان يحظى بالحماية حتى ذلك الوقت. ليس هناك سبيل للعودة. يجب أن يصبح هذا الصبي بالغاً. كلها أمور كثيرة تحدث دفعة واحدة؛ مما يُسبب بعض الاضطراب وتداخل الأمور في المخ خاصة في المجالات الأكثر تعقيداً، أي في قشرة الجبهية الأمامية.

يشعر الشباب بعدم الثقة؛ حيث يتعين عليهم أن يعيدوا تحديد اتجاهاتهم. إنهم يخافون مما هو مُقبل عليهم. حيث يُحدث انتشاراً لانفعالات غير محددة في قشرة الجبهية الأمامية للمخ التي تتم بها المقارنة بين التصورات المتطورة حتى ذلك الوقت والتوقعات وبين الواقع الجديد والتنسيق بينها. بينما لم تعد الشبكات العصبية المركزة هنا والمعقدة بشدة والمحددة للسلوك والموجهه للفكر والمسيطرة على المشاعر - قادرة على تنشيط نماذج معينة بالنظر إلى هذه الانفعالات المفرطة العامة. وبذلك تتوارى القدرات الفوقية التي تصل من خلال هذه الشبكات نسبياً في صخب هذا التداخل العام .

ويستمر الحال بطريقة مشابهة بعد مرحلة البلوغ أحياناً، لا سيما في مراحل الاضطراب النفسي العاطفي الشديد في المخ، الذي يتمثل في: ضعف مؤقت في الفص الأمامي للمخ، وتراجع في نماذج التواصل الأولية المصاحبة من فترة الطفولة غالباً. وفي النهاية عندما لا يفلح أي شيء آخر، يتم تنشيط برامج الطوارىء القديمة في جذع المخ - بدءاً بالهجوم ثم الهرب أو الجمود اللاإرادي. ولا يمكن الخروج مرة أخرى

من نماذج السلوك البدائية القادرة على إنقاذ الحياة؛ إلا عند النجاح في إعادة الهدوء إلى المخ - إما بحل المشكلة المسببة للأرق أو بالحصول على دعم من أشخاص آخرين أو باستعادة ما فُقد في هذا الموقف الصعب بطريقة أو بأخرى، ألا وهو الثقة بالنفس والثقة بالآخرين، وأخيراً وليس آخراً الثقة في عودة الأمور إلى سابق عهدها ثانية. لذا يجب أن يحصل الشباب في مرحلة المراهقة على فرصة لاستعادة الثقة الضائعة في النفس، وفي الآخرين، وفي استرجاع حالة الدعم في هذا العالم ثانية. وكلما نجح الوالدان والمعلمون والأصدقاء في منحهم الفرصة لإعادة اكتساب هذه الثقة؛ كلما استراح الفص الأمامي للمخ لديهم من فرط الانفعال المسيطر عليه بشكل أسرع؛ وكلما تمكنوا هم من استدعاء قدراتهم الفوقية ثانيةً بشكل أفضل.

هناك شرط لتحقيق ذلك بالطبع، وهو أن يتمكنوا، حتى الدخول في مرحلة البلوغ، من تدريب الفص الأمامي للمخ بشكل جيد وكاف وأن يروا أن النضوج أمر يستحق العناء. ولا يتمكن الكثير من الشباب من تحقيق الشرط الأول، بينما يصعب عليهم تماماً تحقيق الشرط الثاني في عالم الكبار الذي يعتريه وسواس التصابي، حيث لا يحصل الشاب أثناء مرحلة البلوغ إلا على انطباع واحد وهو أنه قد لا يكون هناك أسوأ من أن تنضج ومن ثم تصبح أكبر سناً. وأمام وجهة النظر تلك، يجد الشاب في مرحلة البلوغ أن الهروب إلى مخابىء مثل " منزل الأسرة " وجماعات الأقران ذات الثقافات المتعددة، وإلى العوالم الافتراضية لألعاب الكمبيوتر، أو غرف الدردشة، أو حتى اضطرابات التغذية والأمراض النفسية الأخرى - اختياراً منطقياً من وجهة نظرهم . إلا أن ذلك على أية حال هو أكثر الحلول الممكنة، غير الملائمة، لمواصلة توسيع القدرات الفوقية المترسخة في الفص الأمامي.

ظهر في الآونة الأخيرة تفسير يعتمد على الجانب العصبي البيولوجي بإمكان سير الأمور بشكل مغاير وأفضل، وأنه من الممكن اعتبار الحياة خلال تلك المرحلة الانتقالية خطوة مهمة على سلم التحول

التدريجي إلى الرجولة. فلا يحدث هذا الضعف المؤقت في الفص الأمامي للمخ أثناء البلوغ لدينا نحن فحسب؛ بل إنه بكل تأكيد يحدث تقريباً لدى كل الثدييات الأخرى التي تحيا حياة اجتماعية أيضاً. لكنه يُرهق نماذج الرجال بشدة بالغة. حيث يدفعهم تزايد مستوى هورمون التيستوسيترون إلى مثل هذا السلوك المتمرد والخارق لكل الأطر الاجتماعية؛ مما يتسبب في إقصاء هؤلاء الرجال الصغار الذين يمرون بمرحلة البلوغ - بعيداً عن كل قبيلة أو جماعة. ليضطروا بعد ذلك إلى أن يحاولوا مغازلة أنثى من جماعة غريبة، وإذا نجحوا في ذلك فإنها تضمهم إلى جماعتها. وبذلك يتم تجنب وقوع زنا المحارم، الأمر الذي يبدو أنه هو المغزى البيولوجي لاضطرابات مرحلة البلوغ لدى ممثلي الجنس الذكري في الفص الأمامي للمخ.

لكننا لسنا قروداً أو فئران صلعاء، بل بشراً. والفص الأمامي للمخ لدينا هو تلك المنطقة المخية التي تميزنا نحن بالشكل الأكثر وضوحاً عن أقاربنا من الفصيلة الحيوانية. والمثير للاهتمام أيضاً تلك المنطقة المخية التي تتشكل بطريقة مميزة خلال العملية التي نطلق عليها مصطلح التربية والتكيف الاجتماعي. لكن هناك شيئاً في تلك القدرات الفوقية المترسخة في الفص الأمامي يزيد علينا الأمور صعوبة، وهو أنها لا يمكن تعليمها. الأمر الذي ينطبق خاصة على قدرات مثل التفكير والتصرف الاستشرافي (القدرة الاستراتيجية) وتفسير المشكلات الصعبة (القدرة على حل المشكلات) وتقدير تبعات السلوك الخاص (قدرة التصرف - الحرص) توجيه الانتباه إلى حل مشكلة محددة والتركيز عليها بشكل مناسب (الدافع - والقدرة على التركيز) والقدرة على إدراك الأخطاء وتصحيحها وتطوير النقص عند البحث عن حل في الوقت المناسب (القدرة على الإدراك والمرونة) وعدم الخضوع لاحتياجات أخرى طارئة عند حل المهام (التحكم في الانفعال وتحمل الإحباط).

يطلق باحثو المخ على هذه القدرات الفوقية اسم الوظائف التنفيذية للفص الأمامي للمخ، والتي تستخدم في كل عمليات اتخاذ القرار الإدراكية، وبغرض التحكم في السلوك الخاص. يستطيع الشباب ثم الكبار التحكم بشكل جيد جداً في سلوكهم في موقف ما يتطلب مبادرة وفقاً لمخزون الخبرات والسمات الفردية لهذه الوظائف التحكمية. كما يتوقف مدى كفاءة تشكيل هذه القدرات الفوقية حتى مرحلة البلوغ، على الخبرات الخاصة التي قد يستطيع الصبي جمعها حتى ذلك الوقت. حيث يلعب كل الأشخاص الذين يُشكلون البيئة المحيطة بهذا الشاب الصغير، والذين يُمكنونه من صنع خبرات مناسبة - دوراً حاسماً في الأمر .

يمكن مقارنة التشكيل الخاضع للخبرة للشبكات العصبية وأنماط ربط الخلايا العصبية على مستويات مختلفة داخل المخ النامي، ببناء طبقات أقدم أو أحدث في ثمرة بصل: حيث تترسخ الاتصالات العصبية التي تكونت في وقت مبكر للغاية والمسئولة عن التنظيم الأساسي للعمليات المتنوعة والسارية في الجسد مثل التنفس والدورة الدموية وردود الأفعال الحركية البسيطة في طبقات ثمرة البصل الداخلية - جذع المخ. وفضلاً عن ذلك تتكون شبكات أكثر تعقيداً، قادرة من جانبها عند تفعيل النشاط المناسب - على ربط الدوائر التنظيمية الموجودة أكثر عمقاً في جذع المخ للتحكم في الانفعالات الجسدية الفردية مع بعضها البعض للقيام بفعل مُركز، وذلك في مجالات مهاد المخ ومنطقة ما تحت المهاد ونظام ليمبيك الدماغي على أساس هذه الدوائر التنظيمية الموجودة في جذع المخ. حيث تُشكّل نماذج رد الفعل المستثارة في جذع المخ من خلال التهديد أو الخوف (والتنشيط المصاحب لذلك للوزة المخيخ ومجالات أخرى لنظام ليمبيك الدماغي) والمترابطة لعمل رد فعل بدني موحد (مثل توقف التنفس، وتسارع النبض- وإفراز العرق - والخوف وعدم الشعور بالراحة في منطقة المعدة - ووضع الجسم العصبي ... إلخ.)

وينطبق الشيء ذاته على ردود الأفعال الجسدية المصاحبة للرغبة والسعادة والخسارة والحزن أو غيرها من النماذج الوجدانية : حيث يعمل دائماً نظام ليمبيك الدماغي بوصفه نظاماً فوقياً علوياً يمنح مغزى نسبي للدوائر التنظيمية الموجودة في التراكيب الكائنة أكثر عمقاً والمتكونة مبكراً أو الأكثر قدماً لجذع المخ تجمعها إلى ردود أفعال مركزة ومحددة. ويمكن إدراك القشرة المخية بطريقة مشابهة، بوصفها طبقة أخرى لثمرة بصل كائنة فوق نظام ليمبيك الذي يصدر عنه تنظيم الأنشطة التي تم تحفيزها في القشرة المخية الفرعية وتوجيهها والتحكم فيها. ويبني ما يُعرف بلسم القشرة المخية الجبهية الأمامية في النهاية - الطبقة الأخيرة والخارجية لنموذج البصلة هذا. وهنا يتم توفيق نماذج الإشارة المنشطة في القشرة المخية والمستويات الفرعية فوق بعضها البعض واستخدامها في شكل تقييمات ذاتية وقرارات للتحكم في العمليات الجارية في هذه المجالات. هناك رد مثير للدهشة عن السؤال بشأن ما يتحكم في نظام التقرير والتقييم الذي يمنح الأشياء مغزى، والمسئول عن تخطيط الفعل في القشرة المخية الأمامية؛ حيث كانت الإجابة هي : الخبرات المكونة على مدار الحياة من خلال التربية والحياة الاجتماعية في كل عائلة وثقافة أصلية. تتشكل طبقة البصلة الأخيرة والخارجية إذن من خلال قوى يجب البحث عنها خارج المخ الفردي والقناعات والمواقف والاتجاهات والتصورات السائدة في إحدى الدوائر الثقافية المحددة. كما تفتقد القشرة الأمامية تواجد قوى ضرورية لتشكيل هذه الشبكات العصبية بالغة التعقيد، عند غياب هذه الخبرات المميزة لترسيخ منطقي للفرد في جماعة تمنح هدفاً.

إذا تعلم الصبي إذن التحكم الإرادي في سلوكه تحت أصعب الظروف، وتقدير العواقب بشكل صحيح مبكراً، فإنه يُخزن بذلك الخبرة في الفص الأمامي للمخ لكي يتمكن من التعامل بمفرده مع المواقف الصعبة. ويُعد إدراك هذه القدرة جزءاً مهماً للغاية لتكوين ثقة صحيحة بالنفس؛ حيث تنمو الثقة في القدرات الخاصة وما يصاحبها من شجاعة في عدم الاستسلام أمام المشاكل الجديدة الأكبر حجماً. لكن

إذا ضعفت مجالات الخبرة التي تُمكّن من اكتساب هذه القدرات، فلا يمكن تطوير سلوك سليم لمواجهة تحديات جديدة .إذن يجب تشجيع هؤلاء الشباب الناميين تماماً في المدرسة، ودعوتهم، وإلهامهم كي يتبعوا متعتهم الفطرية في الاستكشاف وحب التصميم والتشكيل. هذه هي الطريقة الوحيدة التي من شأنها ترسيخ كل هذه القدرات بشكل خاضع للتجربة في القشرة المخية الجبهية الأمامية التي لا يمكن أن يتعلمها المرء في المدرسة بل يكتسبها بشكل كبير للغاية خلال خضم الحياة .

وبذلك لعلنا نجد الحل للمشكلة التي تطرأ خلال مرحلة البلوغ التي يظل الكثير من الصبية عالقين بها خلال مسيرتهم نحو الرجولة، لمدة طويلة جداً بكل أسف: حيث يجب أن يحصلوا على فرص أفضل لتشكيل هذه النماذج الاتصالية العصبية المعقدة في الفص الأمامي وترسيخها قبل دخولهم فعلياً في مرحلة البلوغ لكي يُسبب لهم ذلك ارتباكاً واضطراباً بسهولة عندما يرتفع مستوى هورمون التيستوستيرون بعد ذلك أثناء مرحلة البلوغ . أي أن كل شيء أكثر استقراراً لديه قدرة أكبر على البقاء.

في الوقت نفسه قد نوفر لهم نحن البالغون، خلال هذه المرحلة الصعبة، المزيد من الدعم. وهو ما تناسبه بعض الطقوس الانتقالية مثل تلك التي يتم تطويرها وتطبيقها وتوارثها بشكل فطري في كل المجتمعات الإنسانية لتخفيف حدة عمليات التحول الصعبة في مراحل حياة معينة. وقد عرف الناس بالفعل قبل علماء المخ، عند الاستعانة بعمليات تصويرية، أن هذه الطقوس تُوفر الدعم وبالتالي تُعيد الهدوء إلى المخ.. وأثبتوا ذلك.

المحطة السابعة :

التحول إلى الرجولة : الانطلاق بجسارة ، لكن إلى أين ؟

تصل مرحلة البلوغ البيولوجية إلى نهايتها الطبيعية بالنضوج الجنسي. تلك العملية التي تتحكم فيها الهورمونات. حيث يبدأ بناء قوي للتيستوستيرون من خلال مواد ناقلة يفرزها الجسم. كما تلعب هنا هورمونات تعرف باسم الليبتين والببتيد دوراً حاسماً، إذ يتزايد إنتاجهما في الخلايا الدهنية لتصب في الدورة الدموية، عندما يفقد النمو البدني الدنياميكية، ومن ثم تستخدم الطاقة المتحررة في البناء المحموم لاحتياطي الدهون. فتصل هورمونات الليبتين إلى المخ وتثير بناء وإفراز هورمونات منبهة لمناسل في الفص الأمامي في الغدة النخامية من خلال تحرير هورمونات الببتيد المنظمة في منطقة تحت المهاد المخية. ثم تصل بعد ذلك عن طريق الدم إلى الخصية؛ حيث تحفز إنتاج هورمون التيستوستيرون في خلايا لايدج البينية لقنوات الخصية الدقيقة. يصل التيستوستيرون المفرز بغزارة الآن عن طريق الدورة الدموية إلى كافة أعضاء الجسم، ويستقر في مستقبلات الأسترويد المستخرجة من الخلايا الموجودة. ثم يتنقل مركب - مستقبل - الهورمون الذي نشأ بتلك الطريقة داخل نواة الخلية؛ حيث يعمل كمنظم للتعبير الجيني. وتنتج الآن الخلايا المعنية مزيداً من كل الزلال الذي يشترك في تشكيل الملامح الجسدية النمطية للرجل بدءاً من بنية العظام والعضلات مروراً بنمو الشعر وصولاً إلى رائحة الجسد. ويحدث أيضاً داخل المخ عمليات إعادة بناء دائمة نتيجة لهذه التغيرات الجسدية وتدفق التيستوستيرون المتزايد، علاوة على ذلك يُنشّط هورمون التيستوسترون شبكات عصبية محددة في المجالات الأقدم في المخ، مما يؤدي إلى نشاط متزايد وإلى رغبة جنسية شديدة - وهو ما يمكن الشعور به بوضوح أكثر بعد البلوغ. وتؤدي الأعباء النفسية العاطفية، ومن ثم ردود الأفعال العصبية المصاحبة لها، إلى قمع عملية

إنتاج التيستوستيرون التي تزيد منها إمكانية التغلب عليها من خلال تحديات تم السيطرة عليها بنجاح.

إذن من يستطيع وهو شاب تجاوز مرحلة البلوغ بدون كل العذابات النفسية الكبيرة والتي تدوم لفترات طويلة للغاية، فإنه سيجتاز عمليات إعادة البناء الجسدية تلك بشكل أكثر سهولة وأقل إزعاجاً، كما سيتمكن من وضع الخطوط العريضة أكثر وضوحاً في تشكيل ملامحه الرجولية المحددة بيولوجيا. إلا أن ذلك لا يجعل منه رجلاً بعد.

كما أنه في طريقه إلى تحقيق ذلك، يقف مجدداً بوصفه شاباً صغيراً أمام المأزق السابق نفسه. حيث لم تعد حاجته للارتباط الآن موجهة صوب الأشخاص الأساسيين المعنيين له من عائلته الأصلية ولا صوب الطمأنينة التي كان انتماؤه للجماعة قد منحها إياه حتى ذلك الوقت. حيث يتوجه حنينه الآن نحو القرب والارتباط بالجنس الآخر، كما أنه يبدأ في البحث عن شريكة يستطيع إشباع هذا الاحتياج معها. وفي الوقت نفسه يعطيه النضوج الجنسي، الذي اجتازه بنجاح وتدفق هورمون التيستوستيرون في مخه، دافعاً شديداً للبحث عن إشباع حاجته الأساسية الثانية الآن والتي تتمثل في التطور المستقل وإثراء القدرات والرغبة الجامحة في المغامرة والحرية.

ويجد كل هؤلاء الرجال الشباب، ممن ينجحون في توجيه مسار حاجتهم للاستقلالية إلى مسار تعليمي من أجل الوظيفة المستقبلية، حلاً سهلاً نسبياً لكنه مؤقت أيضاً لهذا المأزق. وإذا حالفهم الحظ فإنهم يعثرون هناك على مهام يستطيعون النمو معها، ويجدون جماعات جديدة من المتدربين والطلاب والمشتغلين بالفعل يمكنهم الشعور بالانتماء إليهم والارتباط بهم.

لكن إذا صادفهم سوء الطالع فإنهم يعانون من الوحدة والانعزالية. ثم ينهمكون بسهولة بالغة في تعليمهم أو دراستهم الجامعية. وبذلك يمكن أن يصبح الألم الناتج عن عدم إشباع رغبتهم في القرب والارتباط أقل حدة.

وينجح كثيرون بهذه الطريقة في قمع احتياجهم الأساسي للقرب والارتباط لفترات زمنية أطول بشكل أفضل. إلا أنهم في المقابل يصبحون دوماً أكثر اعتماداً على كل هؤلاء الأشخاص الذين يعجبون بهم ويهتفون لهم نظراً لإنجازاتهم المميزة، بوصفهم متخصصين وخبراء ورياضيين أو مُعبِّرين عن الذات. فهم يشبعون احتياجهم غير المشبع في الارتباط عن طريق التقدير الذي يجدونه لدى الآخرين أو يصنعونه لأنفسهم لديهم. فهم في حاجة إلى معجبيهم، كما أن أشياعهم المتحمسين لهم في حاجة إليهم. وغالباً ما يفقد الطرفان حريتهم واستقلاليتهم في هذا الارتباط المتبادل ودون أن يدركوا ذلك. إلا أن هذه اللعبة المتبادلة تتوقف، في وقت ما، عن السير بكفاءة ويجافيها النجاح. عندئذ يعاني هؤلاء مجدداً من نقص ما، وينتهي بهم المطاف إلى أزمة.

هناك طريق آخر يسلكه كل هؤلاء الشباب البالغين الذين لا يستطيعون إشباع احتياجهم للاستقلالية، عن طريق تعليم اختاروه هم لأنفسهم ونجاحات مناسبة. حيث يظل البعض منهم في بيوتهم بالقرب من " ماما "، بينما يبحث البعض الآخر لنفسه عن " ماما " جديدة في صورة امرأة أخرى؛ ليشبعوا بهذه الطريقة حاجتهم إلى القرب والارتباط. وهم يتنازلون هكذا من البداية عن تنمية أنفسهم وفقاً لرغبتهم، كما يتنازلون عن نيل الاستقلالية والحرية. ولكن نظراً لأن هذه الحاجة الأساسية لا يمكن كبتها على الدوام؛ فإنهم يعانون بدورهم من النقص عاجلاً أم آجلاً، وينتهي بهم المطاف إلى أزمة.

أما هؤلاء الذين تُعد حاجتهم للاستقلالية من البداية أقوى بعض الشيء لكنهم لا يجدون المهام التي يستطيعون النمو داخلها، فهم يفضلون البحث عن تلك المهام خارج مجال التعليم والتقدير الاجتماعي الذي يراه كل مجتمع أمراً مهماً يحظى بالاحترام. فيصبح هؤلاء فنانين أو مغامرين، وإذا لم يفلح ذلك أيضاً فقد يصبحون لصوص بنوك أو متشردين أو مجرمين، كما يتزايد مؤخراً عدد المنتقلين إلى العوالم الافتراضية. حيث يشبعون حاجتهم للارتباط في الدائرة الضيقة المكونة من نفس الأشخاص

الذين لهم نفس المفهوم، طالما أن الأمور تسير على ما يرام. وبذلك يتقلص نطاق العالم الذي يعيشون فيه، والذي يصنعونه لأنفسهم، أكثر فأكثر. ويفقدون الدعم وينتهي بهم المطاف إلى أزمة كذلك.

أصبح الأمر مؤخراً لا يُشكل فارقاً لا سيما بشأن كيفية ومدى سرعة انتهاء هذه المحاولات التي يقوم بها الشباب البالغ الصغير في إشباع احتياجاتهم الأولية في الارتباط والاستقلالية، إلى أزمة. فلا يهم سوى أن الطريق الذي يسلكونه يقودهم بشكل اضطراري ومستمر إلى الوقوع في مثل تلك الأزمات، طالما أنهم لم ينجحوا في إيجاد حل لهذا المأزق الذي يُصاحبهم منذ طفولتهم بالفعل. وإذا لم تشبع حاجتهم في الارتباط، فإنهم يعانون من السخط وعدم الرضا. لكن هذا الأمر يحدث إذا ظلت حاجتهم للتطور، وامتداد نطاق معارفهم، غير مشبعة.

يُعد هذا وذاك حالة غير محتملة، لأنها تؤدي إلى انفعال مُبالغ فيه يحدث في المخ دوماً عندما لا يتحقق توقع محدد، لينتشر في بادئ الأمر في الفص الأمامي للمخ ويتخطى بعد ذلك المجالات الأقدم والموجودة بشكل أكثر عمقاً لنظام ليمبيك الدماغي، كما يُنشط رد فعل على الإنذار والإجهاد العصبي من الصعب تحمله. بعد ذلك يتم البحث بلهفة شديدة عن حل من شأنه إعادة الهدوء إلى المخ. وحيث إن المرء لا يستطيع أن يحقق ما يحتاجه بتعويذة سحرية؛ فإنه يقبل دائماً ما يستطيع الحصول عليه لكي يُريح المخ بعض الشيء ثانية، بشكل مؤقت على الأقل: مثل الكحول والمخدرات وأي شيء آخر بديل يعمل على إرضائه لإزالة الإحباط مثل التسوق وجني المال وتحقيق مستقبل مهني ناجح والفوز بالسلطة والنفوذ أو التسلية أمام شاشات التليفزيون أو السينما أو الانغماس في الإثارة والتشويق مثل التجول بسيارته الرياضية في الحي الذي يقطنه والسخرية واحتقار أشخاص آخرين وخلافه.

نحن نعيش في مجتمع مليء بالإمكانات التي لا حدود لها، عندما يتعلق الأمر بإيجاد بديل لتلبية حاجتنا الأساسية غير المشبعة. وهو ما ينطبق على الجنسين، مع اختلاف الطريقة التي يُشبع بها الرجال رغبتهم في الارتباط والاستقلالية عن طريقة النساء في فعل الشيء نفسه حقاً. إلا أن الخبرات التي يصنعونها أثناء ذلك هي نفس الخبرات دوماً. لكن هذا لا يكفي. فلا يمكن إشباع الجوع بهذا الشكل. إذ يحتاج المرء دائماً لهذه الأشكال من الإرضاء البديل بشكل متزايد. وتترسخ هذه الخبرات في الفص الأمامي للمخ. فنحن إذن نخطيء عندما نعتبر تلك المواقف الداخلية، والاتجاهات المستوحاة من هذه الخبرات، بمثابة المشاعر. وهي تدعى الطمع والحقد وحب الامتلاك والغرور. ومن يتبنى هذه المواقف ويرسخها في الفص الأمامي لمخه؛ فإنه سوف يستخدم مخه في المستقبل بشكل ضيق جداً وأحادي ويُشكله على هذا النمط أيضاً.

المحطة الثامنة

تكوين العلاقات : مرتبط بشدة - ولكن إلى متى ؟

يشعر كل شاب بالغ بالارتباط بالوالدين وأعضاء الأسرة، على الأقل لفترة من الوقت، وإلا لما استطاع أن يتعلم شيئاً منهم.. ولما تمكن من صنع خبرات اجتماعية وتنمية قدراته بعد ذلك. وعندما لا يتوافر داخل هذه العلاقة الأولى الضيقة، المزيد من الدوافع الكافية ومساحة الحرية المطلوبة لمواصلة تنوع سعادته بالاكتشاف ورغبته في التشكيل، فإنه غالباً ما يجد أصدقاء يتبادل معهم الآراء ويكتشف ويُشكل معهم أشياء جديدة بالقدر الكافي مرة أخرى. وطالما كان الأمر كذلك استمرت علاقات الصداقة. لكن إذا ظلت الأشياء التي يتبادلونها بين بعضهم البعض كما هي دون تغيير، وقلّت الأشياء التي يتعلمونها من بعضهم البعض، وقلّت الأحداث التي يعايشونها سوياً؛ فإن هذه العلاقات تفقد معناها الداخلي الذي ظلوا يحافظون عليه حتى ذلك الوقت، فيتفرقوا ويتوجهوا إلى جماعات مؤقتة أو ذات مصالح لا يجمع بينها السعادة في كونهم مع بعضهم البعض بل الخوف من الوحدة وعدم الانتماء والوقوع بين أيدي من لا يرحم. لكن لا تستطيع هذه الجماعات القائمة على الخوف وعدم الأمان، إشباع الاحتياج الأساسي للانتماء والارتباط بالنسبة لرجال شباب على الدوام. إذ تختزن حالات عدم التناغم الناشيء داخل المخ بوصفها رغبة. وفي الوقت نفسه تنشط الشبكات العصبية في المخ بتأثير التيستوستيرون. تلك الشبكات التي تطلق ما يمنح هذه الرغبة في الارتباط اتجاهاً محدداً للغاية: ألا وهو الرغبة الجنسية. حيث يبدأ الرجال الشباب الآن في البحث عن شريكة مناسبة.

إن المعايير التي يعتمد عليها الرجال في اختيار شريكاتهم ليست فطرية، بل تستند على الخبرات التي صنعوها حتى ذلك الوقت. وهى من ناحية خبرات عاطفية ايجابية صنعوها مع نساء الأسر التي نشأوا فيها، مثل الأم والأخت الأكبر سناً والعمة أو أي امرأة أخرى من دائرة

الأصدقاء أو محيط العائلة. كما أنها من ناحية أخرى تقديرات عاطفية ذات صبغة إيجابية لنمط معين من النساء نُقلت عن الشخوص ذات الصلة من الرجال، أثناء فترة الطفولة والشباب. ثم تُضاف إلى ذلك لاحقاً التصورات التي يمثلها الأقران في السن وتلك التي تنشرها وسائل الإعلام في السينما والتليفزيون، لترسخ صورة محددة في مخ الشاب النامي؛ فتُمثل إطاراً مرجعياً له في كيفية مظهر المرأة المنشودة وما يجب أن تكون عليه. تلك الصورة الداخلية لـ " فتاة الأحلام " هي إذن صورة معقدة، إلا أنها ولحسن الحظ صورة فردية ومتباينة إلى حد ما، تتولد ويتم الإبقاء عليها من خلال الشبكات المعرفية والوجدانية المترابطة مع بعضها البعض والتي تترسخ في القشرة المخية الجبهية الأمامية، أي في الفص الأمامي للمخ، بشكل مرتبط بالخبرة. وهكذا يجري تقييم النساء محل الاختيار كشريكة استناداً إلى هذه الصورة المرجعية الداخلية. إذ يمكن أن يهتم بعض الرجال عند اختيار شريكة لهم، بالمظهر الخارجي لهذه الشريكة المحتملة، بشكل أقوى مما تفعل النساء. كما تلقى هذه " الجاذبية الجسدية " استحساناً وقبولاً شديداً لدى الرجال في جميع الثقافات. إلا أن هذه الصفات الخارجية التي تجعل المرأة جذابة بشدة بالنسبة للرجال، تختلف بجميع الأحوال من ثقافة لأخرى. وقد تختلف معايير التقييم هذه على مدار الزمن، وهو ما يمكن أن نلحظه في الوقت الحالي في ثقافات تقليدية نتيجة للعولمة.

لا يجدي الحلم بشريكة جذابة إلا بقدر يسير إذا لم يجدها المرء وإذا لم تره عيناها هي جذاباً بدرجة كافية. حيث إن ما يجعل الرجال يتمتعون بجاذبية خاصة في أعين النساء من كافة الثقافات لا يتمثل في المظهر الخارجي؛ بل في المكانة التي يتمتعون بها في كل جماعة اجتماعية. أما إذا لم يكن ذلك كافياً، و إذا لم ينجح الرجل في امتلاك المال والنفوذ والسلطة أو غيرها من الصفات الخارجية التي تنال اهتمام النساء؛ فإن هذا لا يعني ضياع كل شيء، لا سيما إذا كان الرجل لا يفتقر إلى المعيار الثاني من حيث الأهمية عند بحث النساء عن

شريك على الأقل؛ أي يكون الرجل مرهف الحس وحانياً ويمكن الاعتماد عليه أو أن يكون مُحباً فحسب على أقل تقدير.

عندما يصدر ذلك " الوميض " في وقت ما، يكون الرجل واقعاً في الحب. وهو ما يُعد أجمل حالة يمكن أن يمر بها المرء ولكنها الأخطر في الوقت نفسه أيضاً. حيث يشعر المرء بأنه مرتبط بالآخر بشدة، بل إنه ينصهر داخله أحياناً ويتملكه انطباع كما لو أنه قد تخطى أفق حدوده الخاصة، كما لو أن الشريكان لا يسعهما سوى النمو وتوسيع نطاق ذاتيهما معاً أو هما قادران على تقويض الجبال أو نقلها من موضعها معاً. أخيراً يسمح له الآن أن يكون على سجيته. فهو لم يعد في حاجة للتمثيل، ويمكنه الآن إزالة كل واجهات الدفاع والحماية المُنهكة للقوى التي صنعها حول نفسه وداخلها. وبذلك يتحرر فجأة قدر كبير من الطاقات التي كانت حتى ذلك الوقت موجهة لذلك الغرض؛ حيث يزول الشعور بالخوف ويشعر المرء بأنه حر وخفيف كما لو كان محلقاً ومفعماً بالحيوية والقوة.

يا لها من حالة رائعة، لكنها تنطوي على الخطر أيضاً، لأن المرء يضع في حالة العشق نظّارة وردية لا يرى بها جوهر الشيء بكل بساطة، بل يرى ما يمكن أن يراه بهذا النوع من النظارات فقط ؛ حيث يبدو له أنه أوشك على تحقيق حلمه الخاص بحياة ناجحة تنعم بالارتباط الوثيق والحرية في الوقت نفسه. إنها حالة جميلة جداً وتبعث على النشوة، لكنها للأسف ليست دائمة. فإذا نظرنا إلى الأمر من الناحية التقنية للمخ، نجد أن هذا الانطباع يُساق مدفوعاً إلى المخ من خلال تنشيط قوي للمراكز العاطفية في المجالات الأكبر سناً المسئولة عن تنظيم العمليات الجسدية؛ مثل الشبق الجنسي وممارسة الجنس. هكذا تتسبب الأحاسيس القوية المصاحبة لتلك العملية في حدوث بعض اضطراب وفوضى في المجالات الأعلى بالقشرة المخية؛ خاصة في الفص الأمامي. وقد عَبَّرت اللغة الدراجة عن تلك المشكلة بشكل دقيق إلى حد ما، عندما وصفت ذلك الشخص بأنه: " فاقد لعقله وغارق في الحب حتى أذنيه "؛ حيث يصبح

المرء أصم بعض الشيء وأعمى بعض الشيء وساذج بعض الشيء. خاصة لأن المرء يقع في حب الصورة التي يرسمها لنفسه عن شريكة حياته والحياة معها، أكثر مما يقع في حب هذه الشريكة نفسها وحب الحياة معها. لذا فهو لا يرى تلك الشريكة على حقيقتها؛ بل وفقاً لما راوده من حلم بشأنها وبشأن العيش في معيتها. أي أنها ليست سوى مرآة تبدو فيها الأحلام الخاصة وقد أصبحت حقيقة.

لكن ذلك لا يمكن أن يدوم على هذا المنوال، بل من المستحيل أن يدوم إذا لم ينجح الرجل في تكميل حالة النشوة المدفوعة من مجالات المخ السفلى تلك - عن طريق مثبت للعلاقة مع هذه المرأة يُساق من المناطق الأكثر علواً. وهو ليس بالأمر اليسير ولا يحدث أبداً من تلقاء ذاته لكنه يحدث. لذلك قد ينبغي على ذلك الرجل أن يتعلم كيف يحب تلك المرأة باكتشافه لها. وهو ما لا يفلح إلا إذا لم يستند الرجل على شعوره الحدسي الداخلي فحسب، بل على تصور وموقف داخلي محدد وقرار قائم على هذا الموقف. أي اذا كانت منطقة الفص الأمامي للمخ قد توقفت عن العمل في حالة العشق والهيام؛ فعليه تشغيلها الآن إذا كان الحب هو ما سيصدر عنها. ولا يسعه هنا سوى أن يرجو أن تفلح شريكته في ذلك أيضاً.

الأبوة : حسن النية - لكن ما مدى النجاح ؟

" أن تصبح والداً ليس بالأمر الصعب" . لم يعد هذا الجزء الأول من التحذير الذي يُسلح به الوالدان أبناءهم عندما يبعثون بهم لتأسيس أسرة، أمراً سهلاً تماماً بالنسبة لرجال اليوم، خاصة هؤلاء الذين يتوقون بشدة لأن يصبحوا آباءً، وذلك بسبب تناقص الخصوبة. بينما يُعتبر الجزء الثاني من هذا التحذير بمثابة الترويع منذ قديم الأزل، حيث يقول: " أما أن تكون أباً فهذا أمر صعب للغاية ". ولا ينطبق ذلك - ولم ينطبق فيما مضى كذلك - على كل النماذج الذكورية ممن أصبحوا آباءً دون رغبتهم. فمن يأبى أن يلعب دور الأب بالنسبة للطفل الذي أنجبه لا يعد أباً حتى لو تربى الطفل في وجوده. أما كل هؤلاء الذين أحبوا كونهم آباء، فلهم كل الحق في أن يسعدوا بأطفالهم، لأنه ليس هناك شئ أكثر إسعاداً للأب من أن يعرف ما تجلبه إليه ابنته أو يقدمه ابنه له ألا وهو قبوله دون تحفظات كما هو وحبهما له بلا شروط.

هكذا يستطيع كل أب ان يشعر مجدداً في علاقته بطفله، بأهمية أن يتجاسر على الخروج إلى هذا العالم بكل هذا الحماس والشجاعة والسعادة بالحياة. ويجد في معايشته لكنز الطفولة المبكرة في طفله نفس الكنز المتواري داخله مرة أخرى. ليس هؤلاء الآباء في حاجة إلى شخص يقول لهم إن متعة الأب أثناء اللعب تُعد أهم مقومات بناء علاقة ارتباطه بطفله التي تمنحه الأمان. كما أنهم ليسوا في حاجة للسعي إلى أن يصبحوا آباء مستمتعين باللعب ممن ينقلون لأطفالهم حماسهم باللعب معهم ومتعتهم بمداعبتهم والقراءة لهم والاستكشاف والتشكيل معهم مثل إشارة لاسلكية. إذ يتميز هؤلاء الآباء برهافة الحس وتكريس الذات للآخرين والحماس والحرص وتحمل المسئولية، لأنهم يحبون أطفالهم كما هم دون تحفظات أو شروط. ومن يُسمح له بأن يكون على الشكل الذي هو عليه دون أن يضطر لبذل جهد ودون أن يضطر لأن يخاف أو يمثل - فهو إذن شخص

حر. ويشعر الأطفال بهذا الأمر. كما أنه ليس من الصعب أن يصبح الرجل أباً مثل ذلك. بل على العكس، إنها مسألة سهلة للغاية وتمنح الشعور بالحرية.

لكن الصعوبة تكمن في شيء آخر تماماً، شيء لا ينبعث من علاقة كل أب بطفله على الإطلاق؛ بل يأتي من الخارج ويؤدي إلى زيادة الاضطراب في هذه العلاقة بين الأب وطفله التي تبدأ واضحة جداً وطيدة للغاية في الوقت ذاته، بل أحياناً ما يؤدي ذلك السبب الخارجي إلى وأد هذه العلاقة. قد يكمن السبب أحياناً في الزوجة، حيث يتملكها الخوف من أن تتوطد علاقته بطفلها أكثر من اللازم أو أن يكون لديها تصورات محددة بشأن كيفية ممارسة زوجها الأبوة. وربما يكمن السبب في والديه أو حمويه أو أصدقاء أو معارف ممن يزعزعوا ثقته بسبب تصوراتهم وإشاراتهم التحذيرية التي تنطوي عليها تجاربهم. وإذا ترك الأب نفسه يتأثر بكل ذلك؛ فإنه سيتوقف بكل بساطة عن أن يكون على طبيعته، بل إنه يبدأ في التصرف على النحو الذي يتوقعه منه الأشخاص المهمون في بيئته المحيطة.

لعله يكون قد جمع بعض هذه الخبرات بنفسه أثناء فترة طفولته الخاصة أو من آخرين في تلك المرحلة، عندما كان يُقلّد الأشخاص المقربين له عاطفياً دون أن يستعلم منهم ذات مرة عن تلك الأمور بشكل نقدي. عندئذ تكون هذه الخبرات مُخزّنة في مخه ليعاد تنشيطها الآن في علاقته العاطفية التي تربطه بطفله. لذا يتصرف مثل هذا الأب على النحو الذي لا يريده تماماً؛ خاصة في المواقف الصعبة، وغالباً ما يتصرف بالطريقة نفسها التي كان والده ينتهجها عندما كان هو طفلاً.

لكن المأزق السيء الذي يكاد كل أب أن يقع فيه آجلاً أو عاجلاً، والذي يُزيد عليه الأمور صعوبة باستمرار من الآن فصاعداً، إذا كان عليه إما أن يعمل كي يكسب المال من أجل أسرته أو أن يشغل وظيفة تسعده وتحقق له ذاته، مما يجعل عمله مهماً لهذا السبب. عندئذ يصعب

عليه أجلاً أم عاجلاً التوفيق بين كونه أباً وبين العمل. ولا يستطيع أي أب أن يحل هذه الإشكالية وحده. رغم أن أغلب الآباء يحاولون ذلك بإيجاد حل وسط دون أن يدركوا أن أطفالهم يلمسون ذلك التمزق الذي يعتمل داخلهم بكل دقة. إلا أن الأمر غالباً ما يبوء بالفشل نظراً لقلة عدد الآباء الذين ينجحون في الجمع بين كلا الأمرين، لا سيما أن يكونوا ذلك الأب الموجود عندما يحتاج إليه طفله، وفي الوقت نفسه ذلك الرجل الملتزم بعمله والذي يتمتع بمكانة راسخة فيه.

هناك قليل من الآباء فقط هم من ينجحون في تثبيت أواصر علاقتهم الأصلية والحانية مع أطفالهم دون تكرار الوقوع في أسر طريق السلوك القديمة التي صاحبتهم في طفولتهم، ودون أن يقعوا فريسة لانعدام الثقة بالذات بسبب النصائح حسنة النية والخبرات محل الشك التي يغذيهم بها الآخرون. كما أنهم قلة الذين يتمكنوا من التعامل بحنكة مع الصعوبات والمشاكل وينجحوا رغم ذلك في التوفيق بين وجودهم إلى جانب أطفالهم بوصفهم آباء وأداء واجباتهم والتزاماتهم الوظيفية على أكمل وجه في الوقت نفسه. هؤلاء هم الآباء الذين لديهم القدرة على تقديم النصح لأطفالهم من مخزون خبراتهم الحياتية ومن معارفهم الخاصة ومهاراتهم، ليتسلحوا بها في طريق حياتهم. وهو ليس بالأمر الشاق، بل إنه يحدث من تلقاء نفسه. حيث يكتسب الأطفال كل شيء من هؤلاء الآباء الذين يُكرّسون أنفسهم وجدانياً لهم والذين يمتازون بالواقعية. وليس هناك ما يبعث النشاط فيما يُعرف باسم الأجهزة العصبية المرآتية في المخ لديهم؛ سوى ذلك الحماس والإعجاب بكل شيء يعرفه هذا الأب أو يستطيع فعله. حيث يُحاكي الأطفال، خاصة الذكور، النماذج الحركية البدنية والطرق التعبيرية الحركية والتعبير بملامح الوجه وإشارات الأيدي لأبائهم - بحماس بالغ، لتترسخ تلك النماذج في عقولهم. ينطبق هذا الأمر أيضاً على اتجاهات الأب الداخلية وقناعاته واهتماماته وتحفظاته أو إحجامه عن شيء ما.

إلا أن هؤلاء الأطفال يتواصلون في وقت ما، مع أطفال آخرين ويجدوا أصدقاء من خارج الأسرة وجماعات تُشكل أهمية بالنسبة لهم، ومن ثم يرغبون بشدة في الانتماء لهم. وهكذا فهم لا يسعهم سوى أن يكتسبوا منهم قناعاتهم ومواقفهم واهتماماتهم وتقديراتهم للأمور بشكل متزايد. تلك القناعات التي نادراً ما تتوافق مع قناعات الأب. حيث يبدأ الأطفال في الاهتمام بأشياء لا يعرف الأب عنها شيئاً، ويتبنون آراء يرفضها هو. عندئذ تحدث أولى المواجهات التي تتصاعد بسهولة بالغة لتصل إلى حد الشجار الحقيقي، وغالباً ما ينتهي الأمر بحدوث شرخ في العلاقة بينهما.

يستطيع بعض الآباء التصرف بشكل غير تقليدي؛ حيث يبدون استعدادهم في أن يكونوا هم أنفسهم وآراؤهم التي يمثلونها موضع تساؤل من قبل أبنائهم أو بناتهم. بينما يفشل آخرون في هذا التحدي ويتشبثون بقناعاتهم بشدة ودون رغبة في الوصول إلى حل وسط، بل إنهم يقابلون أطفالهم بالغطرسة ولا يأخذونهم على محمل الجد، ويقللون من شأنهم بقدر الإمكان ثم يلعبون دور الأب المتسلط الذي لا يختلف كثيراً في الغالب عن الدور الذي لعبه آباؤهم معهم من قبل عندما كانوا أطفالاً. وحيث إنهم ليسوا على استعداد أو بالأحرى لأنهم لم يتعلموا مطلقاً أن يضعوا قناعاتهم وآراءهم وتصوراتهم محل النقاش، فإنهم يرون في مساعي أطفالهم للاستقلالية هجوماً على صورتهم الذاتية وإدراكهم الذاتي. عندئذ يحدث داخل المخ لديهم ما يحدث عند كل تهديد يواجهونه، حيث تنشط برامج الطوارىء القديمة في جذع المخ: وهي الهجوم والهرب والجمود اللاإرادي.

ولا يمكن تحت هذه الظروف تكوين علاقة وطيدة بالطفل أو الإحساس به وفهم موقفه وإيجاد حل بَنَّاء لمشكلة ما؛ ومن ثم يصبح استدعاء الشبكات العصبية المسئولة عن الإنجازات المعقدة في الفص الأمامي - أمراً غير وارد بسبب فرط الانفعال في هذا المجال؛ مما يتسبب في احتراق مفتاح الأمان بشكل ما. وهو ما يتسبب في إثارة

الخوف لدى الطفل الذي يُظهر بدوره ردة فعل " مدفوعة من جذع المخ " هي الأخرى تماماً، في شكل هجوم وهرب وجمود لاإرادي. وإذا لم ينجح الأب في الخروج من هذه الحالة سريعاً وإعادة تكوين علاقة بنّاءة مع ابنه أو ابنته؛ فسوف يحاول الاثنان في المستقبل تفادي بعضهما البعض بقدر الإمكان حتى تعود الأمور بينهما إلى حالة أفضل، ربما في وقت ما.

في علم الاقتصاد يُعرف هذا الأسلوب القيادي المكسب للشجاعة الذي وصفناه للتو، والذي يدعو العمال والموظفين ويبعث فيهم الجرأة ويلهمهم لخوض خبرات جديدة وتنويع قدراتهم، باسم " القيادة الداعمة " “Supportive Leadership” - لذا يواجه الآباء الذين لا يتمكنوا من أن يصبحوا تلك الشخصيات الداعمة التي تُفجر إمكانات أطفالها، أوقاتاً عصيبة، وهو ما ينطبق على الأطفال بكل أسف.

يستطيع أي أب أن يحل كل هذه الصعوبات، بشكل مبدئي على الأقل، إذا نجح مجدداً في أن ينسلخ من ذاته فيما يخص علاقته بأطفاله وأن يظل بالنسبة لهم الأب الذي يدعوهم ويُحفّزهم ويُلهمهم لشق طريقهم الخاص في الحياة وتحسين القدرات الكامنة داخلهم. إلا أن هناك أمراً واحداً لا يمكن أن يتجنبه الأب: وهو أن أطفاله سيدركون في وقت ما أن المُثل العليا والتصورات القِيَميّة الأساسية التي يُمثلها أمامهم والتي يحاول أن يُقدمها لهم؛ ليس لها أي صدى في حياته اليومية الخاصة أو أنه لا يعمل بها إلا بشكل قليل فحسب أو أنه غير قادر على اتباعها. ويُعد إدراك هذا من أكثر الأمور صعوبة، وليس له حل. فهو لن يتمكن من إعطاء شيء لكل متسول يقابله في المدينة مع أطفاله، ولن يتمكن من مساعدة كل الأشخاص الذين يعانون من أزمة، ولن يقدر على التخلي عن قيادة السيارة تماماً من أجل حماية البيئة، ولن يتمكن من التواجد الدائم إذا احتاجه شخص ما، ولن يستطيع أن يظل ذلك الشخص الداعم للأخرين والمشجع والمُلهم لهم. فهو ليس بوسعه سوى محاولة معايشة كل شيء يمنحه لأولاده في طريق حياتهم قدر الإمكان.

وإذا لم ينجح في ذلك على الدوام؛ فما عليه سوى أن يتمنى أن يغفروا له ذلك فحسب.

المحطة العاشرة

الوظيفة والمستقبل المهني :

بذل الجهد المضني - لكن من أجل ماذا ؟

إن حل هذا المأزق القديم، والذي يُعد أكثر الحلول التي ينشدها الرجال في مجتمعنا الحالي وأكثر الحلول التي يصلون إليها أيضاً، يكمن في محاولتهم إشباع احتياجهم للارتباط والقرب والطمأنينة عن طريق تكوين أسرة. فهم يحاولون تلبية احتياجهم لأداء مهام شبوا عليها ثم نضجوا ليتخطوها، كما يحاولون إشباع حاجتهم إلى تطوير قدراتهم وحاجتهم للاستقلالية والحرية عن طريق تعلم وظيفة يواصلون العمل بها وقد يتمكنوا أثناء ذلك من البرهنة بنجاح على ما يقدرون عليه، وهو كسب المال واكتساب التقدير، وإذا بذلوا جهداً كبيراً وحالفهم الحظ؛ لعلهم ينجحون في تحقيق مستقبل مهني باهر. لا يُعد هذا الانقسام بين الأسرة والوظيفة أمراً رائعاً، إلا أنه لم يكن في الإمكان أفضل مما كان، ويبدو أن الأمر سيبقى على هذا الحال في الوقت الحالي.

يجد الرجال أنفسهم في هذا المأزق منذ وقت طويل للغاية. بينما تسير النساء في محيطنا الثقافي، ومنذ أجيال قليلة، على طريق التحرر من خضوعهم للرجال الذي دام حتى ذلك الوقت.. ومن تعرضهم للتمييز المهني . فهن يتعلمن وظائف ذات مؤهلات عليا، ويحققن النجاح ويصنعن مستقبلاً مهنياً ليقعن تدريجياً بل وبشكل أقوى في المأزق نفسه الذي وقع فيه الرجال منذ وقت طويل. فلم يعد الرجال فقط هم من يعانون من عدم التوفيق بين التزامهم الأسري والمهني، بل الكثير من النساء أيضاً. وليس هناك ثمة حل ظاهر يلوح في الأفق. يسعى بعض الرجال

إلى حل مأزق عدم التوفيق بين الحاجتين الأساسيتين لديهم عن طريق التنازل عن إقامة علاقة ثابتة بشريك للحياة والتنازل عن الأسرة والأبوة أو الأمومة؛ حيث يتزايد عدد النساء اللاتي يفعلن الشيء ذاته. وبذلك يستطيعون التركيز على تحسين قدراتهم بلا قيود، وتطوير جانب الاستقلالية وإمكانات التشكيل الوظيفي لديهم.. لكن يبقى احتياجهم الأساسي الثاني للاقتراب والارتباط والطمأنينة غير مُشبع.

قد يمكن تعويض الشعور بالسخط، وعدم الرضا الناشيء من ذلك الوضع، عن طريق النجاحات المهنية والعمل وتحقيق سمعة جيدة والنفوذ لبعض الوقت، لكن ذلك لن يستمر على الدوام حتى لو اجتهد المرء بشدة. ففي وقت ما سيعود الشعور بالوحدة للظهور ثانية على السطح. عندئذ سيكون الأوان لتكوين أسرة قد فات. حيث يكمن جوهر الإشكالية في عدم الوصول إلى حل إذا تم التركيز بشدة على جانب دون الآخر.

من الصعب جداً في الوقت الراهن أن نتخيل المستوى الأسمى الذي قد نجده للخروج من هذا التمزق بين النجاح المهني والارتباط الأسري. ربما يمكن حل هذه المشكلة بسهولة بالغة، إذا تمكنا من تطوير مفهوم جديد آخر عما اعتدنا على تسميته باسم " عمل " منذ بداية التحول إلى التصنيع: وهو العمل نظير أجر وبذل الجهد البدني والنفسي مقابل مبلغ مالي يضمن توفير نفقات الحياة الخاصة، وإذا دعت الضرورة - نفقات الأبناء؛ لكي يتم تأمين المكسب وإعادة إنتاج السلعة المتمثلة في " القوى العاملة ".

هناك سؤال يطرح نفسه من وجهة النظر العصبية البيولوجية وهو: هل يستطيع مثل هذا النوع من العمل أن يساهم في تأمين الوضع الراهن للتطور الثقافي للإنسان، فضلاً عن إتاحة الفرصة لمواصلة تطوير القدرات الذاتية للإنسان. والإجابة هي: " لا " لأن العقل البشري ليس متكاملاً بالشكل الأمثل الذي يجعله قادراً على إنجاز الخدمات

ولكنه قادر على حل المشكلات التي تتمخض عنها حياة كل فرد في جماعته البشرية والتي تبرز دائماً من جديد. ويُعد كل مجهود بدني أو عقلي يتصدى له الإنسان لتفادي تهديد ما أو مواجهة تحد ما، بمثابة " عمل " وفقاً لمفهوم حدده الإنسان لنفسه ليكون مناسباً له.

ويوضح مثل هذا التعريف للعمل المنسحب على المغزى، أن كل شيء يشغل الإنسان ويحثه على البحث عن حلول جديدة، أي بمفهوم أشمل كل ما يُحركه ويُحفزه، يمكن أن يندرج تحت هذا المصطلح. ولا تتمثل نتيجة هذا العمل في منتج أو خدمة، بل إن نتيجة هذا العمل هي مواصلة تطوير الذات والسعي إلى الكمال وإطلاق القدرات التي لم تكن واضحة ولم تكن قد تفجرت بعد لدى الفرد الذي " يعمل " وفقاً لهذا المفهوم .

وأمام هذا الفهم الموسع لأهمية العمل بالنسبة للتطور الإنساني، يحق الآن طرح السؤال مجدداً، عما إذا كانت هناك جماعات معينة من البشر تعمل أكثر وبشكل أكثر كثافة من غيرها وفقاً لهذا المفهوم.. وإذا كانت توجد أعمال مناسبة أكثر ومن ثم أهم من غيرها فيما يخص التطور الذاتي وإطلاق القدرات والسعي إلى الكمال.

إذا كان العقل البشرى عضواً يتميز بهذا القدر من المرونة حقاً، ويمتاز في تكوينه بشكل جوهري بالقدرة على حل المشكلات والتغلب على التحديات من خلال الخبرات الذاتية، عندئذ تكون الإجابة سهلة ومفادها أن الأشخاص الذين غالباً ما يواجهون معظم المشاكل أثناء تلمس طريقهم في هذا العالم - لابد وأن يكونوا أيضاً هم الأشخاص الذين يجتهدون في " العمل " أكثر. وما يثير الاهتمام أن هؤلاء الأشخاص هم تحديداً الذين نكلفهم نحن الكبار بأقل قدر من العمل، والذين نعتقد أننا يجب علينا أولاً أن نربيهم ليكونوا أهلاً لما نُطلق عليه اسم عمل: إنهم أطفالنا.

لكن التعليم المدرسي الذي نُوفّره لهم بغرض الإعداد للحياة المهنية؛ أي لما نطلق عليه اسم " عمل "، ليس هو النشاط المناسب لهؤلاء " العمال المجدون بشدة " والذين يحبون عملهم جداً - لإطلاق قدراتهم واختبار أنفسهم ومواصلة تطورهم. إذ يكمن العمل المهم جداً بالنسبة للأطفال، والمفيد، والمناسب لعقولهم، في الشيء الذي لا نتوقعه نحن الكبار: **في اللعب**.

يُعد أسلوب معالجة المشاكل من خلال اللعب الذي نقدمه نحن الكبار لأطفالنا، شئنا أم أبينا، بمثابة مدرسة الحياة بالنسبة لهؤلاء الأطفال. فهنلك يتدربون، ويخلقون أماكن تدريبهم، وهناك يصنعون أهم خبراتهم ويرفعون سقف تحدياتهم دائماً لأعلى لدرجة تجعلهم قادرين على تجاوز هذا الحد بسعادة ومن ثم بحماس نابع من الإنجاز الذاتي. حيث يمهدون بذلك لحياتهم المستقبلية في مجتمعنا، من خلال ألعابهم الخاصة التي لا نراقبها ولا نتحكم بها. فبها يواجهون تحديات جديدة ومهام ينمون معها بل ويتجاوزون حدود قدراتهم.. كما يجدون في اللعب الجماعي ما يحتاجونه بشدة لمواصلة نموهم وإطلاق قدراتهم مثل التحديات الجديدة المتزايدة دائماً. وهناك يجدون أطفالاً آخرين يشعرون معهم بالارتباط والطمأنينة، ويتعلمون معهم كيفية حل الصراعات، ويعملون سوياً في أداء المهام، ويبتكرون أعمالاً قد تكون أكبر من أن يتمكن أى طفل أو طفلة من إبداعها بمفرده. وإذا انفعلنا أحياناً نحن الكبار بسبب ما يصنعه الأطفال أثناء لعبهم، وعندما نعايشهم أثناء ذلك وهم يتشاجرون ويتشاحنون، ويغلب عليهم طابع التدمير والأنانية وعدم الاكتراث والملل أو نعايشهم وهم شديدو الانفعال؛ فإننا ننسى بذلك وبكل بساطة أنهم بهذه الطريقة بالضبط يكتسبون من خلال عمل شاق - كل الأشياء التي نُمليها عليهم بوصفها حلولنا لشق الطريق الصحيح في الحياة.

وقد يتخذ الأمر برُمته مَنْحى آخر، لكن هذا يتطلب جهداً لتغيير أنفسنا وتصوراتنا الحالية. ولم يعد الرجال الذين ينجحون في عملية

التحول الذاتية تلك - يعملون لكسب المال وتحقيق مستقبل مهني ناجح والفوز بالسلطة والنفوذ، بل يعملون بغرض إطلاق القدرات الكامنة فيهم وفي غيرهم من الناس. ويحق لهم الحدس ثلاث مرات بشأن ماهية العمل الأكثر إشباعاً والأكثر إسعاداً تحت هذه الشروط - ليس فقط بالنسبة للرجال .

المحطة الحادية عشر

الخلاص : أخيراً تحرر ـ لكن من أجل ماذا ؟

في وقت ما، تنتهي بالنسبة لكل رجل فترة ممارسة نشاط بغرض كسب العيش وزمن الانشغال بما كان يُطلق عليه حتى الآن اسم " عمله ". وينتهي كذلك تسلقه لسلم الوظيفة. حيث لبى احتياجات الأسرة، وأتم بناء البيت، وانطلق الأطفال بعيداً، وتوقفت زوجته عن توقع الكثير منه. لقد أنجز واجباته ولعب دوره كزوج وأب وموظف بشجاعة حتى النهاية. لقد تحرر الآن من كل هذه الالتزامات. وأخيراً أصبح حراً ثانية، بل ربما لأول مرة في حياته.

يا له من شعور رائع بالحياة. فهو لم يعد في حاجة الآن إلى إزالة أي عثرات وضعها آخرون في طريقه ليحملها هو إلى الجهة التي يريدونها. كما أنه يستطيع أن يُنجز أعماله بالشكل الذي يريده هو الآن. ولم يعد في حاجة للبقاء مع زوجته من أجل إحلال السلام وبسبب الأطفال فحسب. لذا فهو يستطيع أن يقرر بحرية، ولأول مرة الآن، ما إذا كان يريد مواصلة الحياة مع تلك المرأة. هل يريد أن يحبها بالشكل الذي آلت إليه وهي بجانبه طوال تلك السنوات. لا يتعين عليه أيضاً رعاية الأحفاد، لكنه يستطيع أن يقرر عن طيب خاطر أن يكون جداً مُحباً لهم. كما لم يعد عليه الذهاب إلى المدرسة لحضور اجتماع أولياء الأمور. لكنه يستطيع أن يقيم ورشة في المدرسة إذا أراد، كي يشارك فيها الأطفال أثناء بناء طواحين رياح وسيارات كهربائية أو أي شيء يرغب فيه. أي لم يعد عليه فعل أي شيء الآن بكل بساطة؛ بل إنه يستطيع أخيراً أن يفعل ما يريد. إنه يستطيع أن يفعل ذلك على أية حال إذا رغب فيه.

لكن الواقع يبدو مختلفاً تماماً بالنسبة لعدد كبير من الرجال المتقاعدين. حيث لا يسعد سوى جزء منهم بانتهاء العمل المضني على

مدار عقود فحسب، بينما لا يُشكّل لهم ما سيحدث بعد ذلك أي فارق. إذ يمكنه أخيراً أن يأخذ قدراً كافياً من النوم حتى الصباح، ويقرأ الجريدة في هدوء، ويتناول إفطاراً جيداً، ويذهب إلى المدينة ويُنسق الحديقة، ويزور الأصدقاء، ويسافر للخارج، ويُعيد تصنيف مجموعة طوابع البريد، ويُنظم مستندات المعاش، ويزور أطفاله، ويذهب إلى السينما ويُرمّم المنزل، ويُرتّب الورشة، ويُنظف السيارة ... إلخ. أي أن هناك الكثير مما يمكنه عمله، عندما لا يتعين عليه " العمل ". هكذا يشعر بالمتعة في الشهور الأولى، وبعد ذلك تبدأ الأمور في اتخاذ شكل الروتين اليومي، ما هي إلا سنوات قليلة على الأكثر حتى تصبح هذه الحياة خاوية بلا معنى أو قيمة. ثم تظهر أولى أعراض الضعف البدني ليمرض الرجل وتنتهي حياته في وقت ما.

لا يبدو الحال أفضل بالنسبة للجزء الثاني من الرجال الذين يواجهون انتهاء حياتهم الوظيفية بقلق، وأحياناً بقدر من الخوف الذي يبدونه بشكل أو بآخر. حيث ينتمي معظم هؤلاء إلى فئة الناجحين المتفانين في وظائفهم والمتحملين للمسئولية وذوي النفوذ والسمعة المهنية الطيبة. لذا يبدو لهم التقاعد القادم مثل ثقب أسود، يصبحون على مشارف السقوط داخله، إذا لم يتمكنوا من الذهاب لعملهم بعد الآن.

عندما يكون ذلك قادماً لا محالة؛ فإن البعض يستسلم للأمر الواقع ويحاول الخروج بأفضل ما في هذا الوضع، وإن كان بشكل أكثر تعاسة من هؤلاء الذين كانوا سعداء على الأقل في البداية بانتهاء فترة الوظيفة . لكن الأنشطة التي يقوم بها الأشخاص الناجحون مهنياً في فترة المعاش، تبدو أكثر جاذبية: والتي قد تتمثل في رحلة حول العالم أو قضاء عام داخل مقطورة نوم فاخرة يجوبون بها أنحاء أوروبا، أو في زيارة المعارض وجمع القطع الفنية وإلقاء المحاضرات وقراءة الكتب ومواصلة التعلم في جامعة لكبار السن ... إلخ. لكن كل ذلك قد يتحول، في وقت ما، إلى روتين وتختفي الرغبة في الحياة وتقترب النهاية حتى لو سعى الأطباء بأقصى طاقتهم لإطالتها.

هناك أيضاً مجموعة من الرجال الناجحين في عملهم لا يقعون فريسة للسلبية في مواجهة تقاعدهم الوشيك. فهم يسعون بكل قوتهم لمواصلة العمل بشكل ما؛ حيث يعرض أحدهم خدماته بوصفه من كبار المستشارين أو عضواً في مجلس إدارة أو لجان أو مؤسسات أو أي إمكانيات أخرى للاستفادة من خبرته كمدير والاستفادة من معرفته وخبراته في مكان ما. لكن هذا الوداع البطيء للحياة المهنية هو في النهاية مجرد طريق منحدر، وانزلاق يزحف ببطء إلى أسفل. حيث سيأتي وقت لن يتم فيه سؤال هذا الكبير، ولن يحظى بالإعجاب بعده. عندئذ سيراوده الشعور بأنه رغم أنه مسموح له بالمشاركة، لكنه لا يُشكل سوى كماً مهملاً في أعين الآخرين. ولن يفيد التشبث بالبقاء كثيراً، بينما يكون الابتعاد أقسى كثيراً. هكذا يصبح المرض والوهن هما على الأغلب بمثابة الهبوط الاضطراري الوحيد من سفرة صعود الوادي تلك.

أمام إمكانيات الفشل المختلفة بالنسبة للرجل تحديداً عندما ينتهي الدور المنوط به، فإن الأمر يستحق النظر إلى أمثلة النجاح النادرة. أي إلى رجال وجدوا الخلاص من التزاماتهم الحالية حقاً، وعثروا على طريق الحرية، وتغلبوا على هذه المرحلة قبل الأخيرة للتحول بالشكل الذي يجعلهم قادرين على مواصلة الارتباط وتجاوز حدود الذات. هؤلاء الرجال هم قلة، حيث يُميزهم شيء طوروه غالباً من قبل حتى وصل الآن إلى قمة الازدهار. إذ يتمثل هذا الشيء في الواقعية والتفرد والروحانية. بل إننا نعرف بعضهم بالاسم فعلياً؛ مثل " كريشنا مورتي وغاندي ومانديلا " الذين ينتمون لهذه المجموعة بالطبع. بينما توارت أسماء كثيرة في دائرة النسيان، وتم إغفالهم حتى أثناء حياتهم. ويكمن السر وراء ذلك في سلوكهم القائم على الوضوح والثقة والمصداقية والاعتراف بالجميل والتواضع والاحترام والحنان والرعاية.. وفوق كل ذلك على الحب. ويهتم هؤلاء الرجال بسعادة الآخرين أكثر أهمية من سعادتهم الشخصية. وهذا هو الاختلاف.

المحطة الثانية عشر

التصالح : أخيراً عثر عليه مجدداً - كل شيء على ما يرام !

تبدأ حياة أي رجل بخبرة التوحد الشاملة. لذا فهو لا يستطيع أن يشعر بحالة الانفصال فيما بعد؛ إلا لأنه تعرف في بداية حياته على هذا التوحد بالفعل. ليس إلا لأنه يعرف كيف يمكن أن يكون عليه الحال، فإنه يصبح قادراً على إدراك أنه في وقت ما لم يعد الحال على شاكلته التي كان عليها من قبل، أي أن يتوحد مع الذات ومع العالم. تترسخ هذه الخبرة الأساسية للتوحد - في البداية - في جسده، ثم في مخه بعد أن يكون تطور الجسد قد اكتمل، لتنشط بعد ذلك عند كل خبرة للانفصال بشكل تلقائي بوصفها مرجعية داخلية، أو بوصفها تصوراً عما هو مفروض أن يكون. وهكذا يتم تنشيط وتثبيت الهياكل الداخلية التي تحمل هذه المعلومة في كل مرحلة تطورية مجدداً.

وينطبق هذا بدوره على الخبرة الأساسية للارتباط مع الأم أولاً؛ ثم مع أعضاء آخرين من أسرته الأصلية ومع أصدقائه وكل الأشخاص الآخرين الذين يشعر نحوهم بالارتباط. وتبقى هذه الخبرة الأساسية أيضاً راسخة طوال العمر في مخه، حيث يُعاد تنشيطها وتثبيتها من جديد مع كل خبرة انفصال يمر بها.

تستقر كذلك الخبرة المبكرة للنمو وتجاوز حدود الذات وإطلاق القدرات وبلوغ مرحلة الاستقلالية والحرية - في المخ بعمق، ويُعاد تنشيطها مجدداً ومن ثم مواصلة تثبيتها من خلال كل خبرة متناقضة للسكون والحد من الاستقلالية ونقص منطلقات الحرية.

يصنع كل رجل خبرات على مدار حياته تُجبره على فصل أجزاء محددة منه وشطرها بل وقمعها - ولا تختلف النساء في هذا الصدد. ولن يتمكن لاحقاً من إشباع حاجته للارتباط ، وسعيه لإنجاز مهام ينمو

من خلالها ويصبح حراً ومستقلاً في مشوار حياته مثلما كان الحال في بداية حياته. وبناء عليه تضطره هذه الخبرات المؤلمة إلى قمع واحدة من هاتين الحاجتين الأساسيتين على الأقل وفصلها. إلا أن المعرفة بالحالة الأصلية تبقى مترسّخة بعمق في مخه؛ لأنه قد لا يشعر أن شيئاً آخر مختلفاً عما كان في الماضي - قد حدث.

هكذا يحمل كل رجل طوال حياته كل هذه الأشياء بداخله، تلك الأشياء التي لا يستطيع العيش بها في العالم الذي يحاول أن يشق لنفسه طريقاً فيه: فهو لا يمكنه أن يعيش مجدداً ذلك الطفل الصغير الذي كانه يوماً ما، ولا الجزء الأنثوي الذي فصله عن ذاته، ولا الوحدة الكاملة التي فتتها في فكره وشعوره وفي رأسه وفي جسده - ولا الحب الذي عرفه يوماً ما. ولن تصبح هذه الحالة محتملة بالنسبة له إلا عن طريق تصورات محددة، وقناعات ومواقف وآراء صنعها على مدار حياته بناء على خبرات اكتسبها من خلال محاولات إشباع احتياجاته الأساسية، ورسخها في الفص الأمامي للمخ. وهي تقول: " يجب عليه النفاذ " و" ليس هناك خيار آخر" و " لن يفلح الأمر بطريقة مختلفة " و" من الممكن تحمل ذلك ".

ولكي يُصبح سعيداً قد يكون عليه إلغاء النماذج الاتصالية الناشئة من خلال الخبرات السلبية، وما يتولد منها من تصورات محدودة ومواقف واتجاهات في وقت ما. وهو ما يعني أنه قد يتعين عليه التحرر من كل ما كان يدعمه حتى الآن. يحدث هذا من تلقاء نفسه عند الموت. لأنه عندما يتوقف ضخ الدم إلى المخ يكون الفص الأمامي للمخ هو أول ما يفقد قدرته الوظيفية. ولا يتمكن سوى عدد قليل من الرجال من التحرر طوال حياتهم من التصورات المترسّخة والداعمة لهم والقناعات والمواقف والآراء وذلك انطلاقاً من قوتهم الخاصة. لأن هذا من شأنه أن يُسبب الشعور بالخوف الذي لا يمكن التغلب عليه سوى من خلال شعور آخر عكسي؛ ألا وهو الحب الشامل الذي يخلو من التحفظات. لو نجح الرجل في ذلك لتصالح مع نفسه ومع العالم.

ملحوظة ختامية

لقد وصلنا الآن إلى نهاية رحلتنا داخل طبيعة وجوهر الجنس الذكوري بوجه عام، وداخل ما يحدث في رأس الرجال بوجه خاص. وقد يبدو الطريق الذي اتخذته عميقاً بشدة للبعض، وسطحي للغاية بالنسبة لآخرين. ولا شك أن هناك من يرى بعض مقاطع هذه الرحلة طويلة للغاية والبعض الآخر يراها قصيرة للغاية. لذا لا يسعني سوى أن آمل أن تفهموا ذلك.

أما النساء.. فأرجو منهن تفهم مسار الرحلة المرسوم هنا، خاصة كل النساء اللاتي يلتزمن بتكريس أنفسهن من أجل التغلب على أشكال الهيمنة الذكورية المتنامية تاريخياً. كنت أرغب في سطر كتاب للرجال يُعينهم على فهم أنفسهم بشكل أفضل. وربما يكون هناك نساء كثيرات قد فهمن رجالهن منذ وقت طويل، ولم يعثرن هنا سوى على نفس الشيء الذي كن قد عرفنه من قبل. لكنني لست متأكداً تماماً من ذلك؛ لأن النساء بوصفهن أمهات قد لعبن دوراً جوهرياً في الحالة التي كان عليها الرجال في السابق وفيما هم عليه بشكل جزئي اليوم. إلا أنني متشوق لمعرفة كيفية تقييم المرأة للدور البيولوجي الذي يلعبه الجنس الأنثوي، كما أتوق إلى أن أعرف كيف تتم مراحل التحول إلى امرأة من وجهة نظرها.

إلا أنني أخشى أن يجد ممثلو الجنس الذكوري محتوى هذا الكتاب صعب الفهم والاستيعاب أكثر مما تراه النساء. أو على الأقل بعضهم. فسوف يتعذر على هؤلاء الرجال تقبل كون جانبهم من الجنسين ليس هو من يصنعهم رجالاً وما يميزهم بوصفهم رجالاً. وسوف يتعين على بعض النماذج الذكورية الحالية، والتي تتمتع بجماهيرية ولها حضور في وسائل الإعلام، أن تتساءل عن تلك المرحلة من مراحل التحول إلى الرجولة التي ظلوا عالقين بها لأسباب لا يمكن لأحد سواهم استخلاصها.

وأنا مُدرك أن ما خلص إليه هذا البحث، والذي يُفيد بأن مسار عملية التحول تلك يبدأ من شخص ضعيف إلى عاشق، يُعد بمثابة الجرأة بالنسبة لكثير من أفراد الجنس الذكوري؛ خاصة بالنسبة لكل الذين يحاولون بكل اجتهاد حل مشاكلهم ومشاكل العالم مستعينين بالعقل المجرد وكثير من الفعل. وأنا أستطيع أن أواجه هؤلاء بقولي: لا يصح ذلك دون مشاعر. لكن حتى المشاعر يمكن أن تتحول.

فالعشق والشهوة هما شعور. لكن الحب ما هو إلا موقف يتشكل عن طريق تحول مشاعر الهيام. حيث يمكن للرجل مواجهة امرأته به، أو التعبير عنه بالكلمات، ومن الأفضل أن يُظهره لها.

وقد يتسبب هذا الكتاب في إثارة الحيرة لدى بعض القراء والقارئات؛ لأنني استغنيت تماماً عن تزويده بالهوامش والإحالات المرجعية والإشارة إلى أي إصدار مُستخدم. وهو ما يرجع إلى سببين؛ أحدهما ذاتي والآخر موضوعي. حيث يكمن السبب الذاتي في موقفي. فأنا أعلم وأشعر - شأني في ذلك شأن كل إنسان آخر - أن ما جمعته على مدار حياتي من معرفة وما اكتسبته من قدرات ومهارات؛ نقلته عن أشخاص آخرين. ومن الكتب التي سطروها ومن الحوارات التي أجروها معي ومن الحث والتحفيز الذي زودوني به عندما دفعوا بي على طريق الحياة. لذا وجب عليّ أن أشكرهم. وكان من المفترض أن أشير إليهم في استشهاداتي. إلا أنني لا أملك مصادر أصلية يمكنني الاستشهاد بها في هذا الكتاب، لهؤلاء الذين أمدوني بأهم الدوافع والأفكار لتأليف الكتاب وهما جدي وزوجتي، وهو ما ينطبق كذلك على والدي وأبنائي وأصدقائي. كما أن الكتاب الذي حوى، ربما لأول مرة، وصفاً لما يُميّز الرجل المحب - يرجع إلى بضعة آلاف من السنين وليس له مؤلف محدد. فضلاً عن أنني أشعر بالرجفة من فكرة ضرورة وضع فهرس به قائمة بالمراجع، يشتمل على مقال منشور لأحد باحثي كائن البراميسيوم بين كتاب العهد الجديد ورواية روبرت موزيل " رجل بلا مزايا ". وأعتقد أنني بهذا أكون قد ذكرت سبباً موضوعياً

مهماً يُفسر إحجامي عن ذكر المراجع المستخدمة في هذا الكتاب. لعل الإحالات المرجعية كانت ستُعد كثيرة للغاية بالنظر إلى نطاق المحتوى الممتد من " البراميسيوم " إلى شخصية " كيرشنا مورتي ". ولعلني كنت ساضطر إلى حذف عدد كبير جداً منها أيضاً. هذا وتُتيح خدمات البحث على شبكة الإنترنت لكل المهتمين - إمكانية متابعة الأوضاع التي وصفتها والمعارف بشكل أوسع وأعمق.

وربما يكون أحد الحقائق أو النتائج التي ذكرتها هنا قد فسرها كُتّاب آخرون بشكل مختلف وتأملوها بشكل آخر واستخلصوا منها نتائج أخرى واشتقوا منها علاقات أخرى. ونحن نتوقع من المعارف العلمية بوجه عام، ومن العلوم الطبيعية بوجه خاص، أن تتحري الموضوعية بالطبع. إلا أن مطلب تحري الموضوعية في العلوم الطبيعية يمكن أن يزداد صعوبة على الدوام كلما قوي اهتمام تلك العلوم بظواهر العالم الحي أو حتى بالبشر أنفسهم.

إن القناعة الأساسية الحاسمة التي أتاحت الفرصة لتحقيق الفوز لصالح العلوم الطبيعية، وزودتها بكل المعارف المدعومة اليوم بهالة عدم كونها مثاراً للشك - تكمن في الادعاء الذي روّجت له الحناجر العالية حتى اليوم والذي ارتضاه من قبل كم هائل من الأشخاص ممن ليس لديهم دراية بالعلوم الطبيعية والمتمثل في أن معارف ومعلومات العلوم الطبيعية مثبتة بشكل " موضوعي " من خلال نتائج تطبيقية ومؤكدة منهجياً من كافة الزوايا وقابله للتكرار في كل وقت ومن ثم يمكن إثباتها علمياً، لذا فهي تُقدم توصيفات صائبة للعلاقات الموجودة واقعياً وظواهر العالم الحي وغير الحي.

إلا أنه لا يمكن لنتائج البحث العلمي في العلوم الطبيعية أن تحقق مطلب الموضوعية ؛ إلا إذا ظلت الملامح الجوهرية لكل من الظواهر الواقعة في دائرة البحث، أي مواصفات المادة البحثية، كما هي دون أي تغيير، إذا تم انتزاع مشروع البحث في إطار التجربة من السياق

الموضوع بداخله بشكل طبيعي. لذا يجب انتزاع النباتات والحيوانات من كل نظام بيئي، ويجب بحث الأعضاء الفردية بمعزل عن الجسد الكلي بالرغم من ارتباطها الوثيق بالجسد. كما يجب عزل خلايا عن خلايا أخرى ووضعها رهن ظروف اصطناعية بغرض التمكن من بحث المواصفات الفردية أو أداء هذه الخلايا " بموضوعية ".

تُعد قوانين فيزياء نيوتن بمثابة توصيفات دقيقة وموضوعية للظواهر التي تم مراقبتها على العالم فوق سطح الأرض. بهذا لا يكون نيوتن قد اكتشف الجاذبية بل اخترعها وذلك من منظور علم فيزياء الكم والفيزياء الفلكية.

كان هذا العزل من السياق، هذا الفصل للظواهر الجزئية الفردية موضع البحث من كل شيء والذي يحد من إمكانية إعادة إنتاج خلاصات البحث بوصفها متغيرات متداخلة، أمراً ناجحاً للغاية في الماضي.

لقد أدى ذلك إلى أن ما يُعرف باسم " علوم الكائنات الحية " زاد في القرون الأخيرة من جمع المزيد من المعرفة فوق مزيد من الظواهر القابلة للانعزال للكائنات الحية. وكانت كل نتيجة فردية جريئة ومختلفة وظاهرة بشكل خاص داخل المعايير القياسية التي نتجت منها؛ خاصة إذا لم يكن الأمر يتعلق بتزوير متعمد لنتائجها تتسم بالصحة وقابلة للتكرار ومن ثم تعد موضوعية.

لكن هذه الاستراتيجية المستقاة من الفيزياء والكيمياء الكلاسيكيتين، تصطدم بالحدود القابلة للتنبؤ إذا تم نقلها لتحليل نُظم حية بشكل غير متدبر. هناك بعض النظم الحية التي لا تتسم بكونها أكثر تعقيداً فحسب؛ بل بأن نظمها الفرعية مترابطة مع بعضها البعض بدرجة غير قابلة للفصل، كما أنها متعلقة ببعضها البعض كما هو الحال في مجال الحياة غير الحية أو كما هو الحال من منظور حياتنا الأرضية. إن النظم الحية هي عبارة عن نُظم دائمة بذاتها وقادرة على التطور الذاتي والتكيّف؛ أي أنها نُظم متغيرة دائماً وتتفاعل مع تغيرات الظروف المحيطة والسياق باستجابات خاصة لا

يمكن تفتيتها إلى أجزاء صغيرة ولا يمكن بحثها بشكل منفصل عن بعضها البعض دون أن يتم تدمير الشيء الذي يُميزها في تفردها.

و قد يؤدي تفتيت المكونات الفردية لنظام حي، في أحسن الأحوال، إلى شرح مميزات هذه المكونات وكيفية عملها بشكل أكثر دقة. وتعود هذه المعرفة لتغير نفسها من جديد، للدخول بأشكال حيل محددة الهدف في تداخل الوظائف الثانوية الفردية وتغيير الكائنات الحية، طبقاً لتصوراتنا واستخدامها لتحقيق أهدافنا.

لكن هذه الطريقة بكل أسف لا يمكن أن تُسهم في فهم ما يصنع الحياة. لذا فنحن نقف اليوم حائرين أمام السؤال عما يجعلنا بشراً بعد كل هذه الاكتشافات الضخمة لعلوم الكائنات الحية حول بناء الأعضاء والأنسجة والخلايا والشفرة الجينية للإنسان وطريقة عملها، مثلما كان الحال في بداية عصر التنوير. فقد فتتنا أنفسنا وحللناها، لكننا لم نفهم أنفسنا بشكل أفضل، ناهيك عن أننا لم ندرك لماذا نحن على هذه الشاكلة.. ولماذا نفكر ونشعر ونتصرف بالطريقة التي نمارسها في حياتنا اليومية. ويُعد هؤلاء الذين يقدمون لنا المعرفة بشأن ما يحدث في جسدنا وعقلنا، هم تحديداً أقل الأشخاص الذين لديهم الاستعداد والقدرة على أن يتساءلوا عن الدوافع والنوايا والقناعات والتصورات التي قدموا بها نتائجهم " الموضوعية " ـ طالما أنهم يمارسون هذا النوع من العلم بنجاح بما يفعلونه.

لكن من ذا الذي يختار أطروحة محددة يضع لها التجارب المطلوبة بشكل معين وليس بشكل آخر ؟

من الذي يحدد أي من المتغيرات تبقى ثابتة وأي شروط للتجربة يمكن مراقبتها ؟

من الذي يختار أي المعايير والقيم الوسيطة سيتم قياسها وأيها لا ؟

من الذي يُفسّر بيانات القياس الناتجة تحت هذه الشروط ووفق أية وجهات نظر ؟

من الذي يُقرر بشأن ماهية النتائج التي يعلن عنها أمام الرأي العام وأيها لا ؟

الموضوعية هي دائماً ما يتم قياسه تحت كل شروط التجربة. ويتوقف كل شيء آخر على من يخطط البحث الخاص ويُنجزه ويُقيّمه بناءً على قناعاته الذاتية وحالته المعرفية وتصوراته عن العالم والإنسان.

أما نحن - المتلقون - لهذه النتائج الموضوعية العلمية؛ فنستقبل برحابة صدر بالغة هذه المعارف العلمية الطبيعية المقدمة لنا ذات الصبغة الذاتية التي يقدمها لنا هؤلاء الذين يوافقون تصوراتنا ومقاصدنا وتصوراتنا عن العالم والإنسان، ونرفضها إذا جعلت تفكيرنا الآني وسلوكنا مثاراً للشك.

فلست أنا هذا الشخص الذي يُقرر - في النهاية - أن المعلومات المجمّعة في هذا الكتاب والنتائج المشتقة منها، بمثابة وصف وشرح دقيق للذكورة بوجه عام والتحول للرجولة بوجه خاص .. بل أنت عزيزي القارىء.

فهرس المحتويات

الكتاب الأكثر مبيعاً
في قائمة كتب "دير شبيجل" الألمانية

الرجال يفكرون ويشعرون ويتصرفون بشكل مختلف عن النساء .. وللرجل مخ مختلف عن مخ النساء ولكن لا توجد جينات خاصة بالرجال مسئولة عن البناء المختلف لمخ الرجال. فما الذى يجعل الرجال مختلفين عن النساء إذن ؟ السبب فى ذلك هو أن لديهم بالطبع عقل مختلف ؛ لذا يفكرون ويشعرون ويتفاعلون أيضا بطريقة مختلفة.

لكن لماذا يتطور ويتكون عقلهم بأسلوب مختلف عن النساء؟ وكيف يصبح رجل ما رجلاً؟ وكيف يتكون هذا الكائن الحي إلى الشكل الذى يعتبر رجلاً؟ هذا هو السؤال الذى يبحثه هذا الكتاب .. ولأن مؤلفه عالم أحياء علم الكائنات الحية وباحث فى العقل البشرى، ويمثل الجنس الذكورى، فإنه يسعى من خلاله للإجابة عن هذا السؤال ، مستخدماً معارفه وجيرانه ومهارته وقدراته ، وكيف نشأت الاختلافات بينهم؟ ليسرد لنا فى هذه الصفحات بين الرجال والنساء، من خلال التفسير العلمى لسلوكيات وتصرفات وأسلوب حياة الرجال، ولماذا أصبحوا على تلك الشاكلة في طبيعتهم وجوهرهم.

الكتاب رحلة داخل طبيعة وجوهر الجنس الذكوري بوجة عام، وداخل ما يحدث فى رأس الرجال بوجه خاص، يعينهم على فهم أنفسهم بشكل أفضل.



جيرالد هوتر

عالم فى الأحياء وباحث من أشهر الباحثين في مجال المخ في ألمانيا، تخرج في جامعتيّ ليبزج وجينا. وفي سنة ١٩٧٩، اشتغل في قسم علم النفس الطبي بالمستشفى الذي أسسه في جوتنجن، كما يشغل مدير مركز أبحاث علم الأعصاب البيولوجية في قسم الأمراض العصبية بمستشفى جوتنجن الحامعي.

ألقى محاضرات ونظم سيمنارات وعمل مستشاراً للسياسيسن في الشركات، وأسهم بالكتابة وأشرف على دوريات علمية، وألف عدداً من الكتب المفيدة والممتعة، مثل: "إدمان الكمبيوتر فى العصر الحديث"، "تطور الحب" ، "كيمياء الغضب" ، "اختراق العقل" ، و"كيف يصبح الطفل رجلاً سعيداً" ... وغيرها.

و"هوتر" يعتبر نفسه باني جسور بين العلم والحياة اليومية للإنسان، وذلك من أجل الاستغلال الأمثل لقدرات البشر في مجالات التعليم والقيادة السياسية والاقتصادية بالمجتمع.



٦٠ شارع القصر العيني (١١٤٥١) - القاهرة
تليفون: ٢٧٩٥٤٥٢٩ - ٢٧٩٢١٩٤٣ - فاكس: ٢٧٩٤٧٥٦٦
٤٢ ميدان البصرة - أول شارع دجلة - المهندسين
تليفون: ٣٧٤٩٢١٤٥ - ٣٧٦١٨٣٨١ - فاكس: ٣٧٦١٨٣٨١
email: alarabi5@link.net

